يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي



أروع قصة طويلة لمرسيل بريفو

مدموازيل جوفر

الجزء الثاني والأخير

مرسيل بريڤو

مدموازيل جوفر



MADEMOISELLE JAUFRE

Par

MARCEL PREVOST

الثمن ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثالث والخمسون

الجزء الثانى

ترجمة فقيد الصحافة العربية المرحوم

فرج جبران

الادارة : عمارة الجندول ــ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ــ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ترقيم الصفحات

روعى فى ترقيم صفحات هذا الجزء أن تبدأ أرقام صفحـاته من حيث انتهى ترقيم الجـزء الاول ، أى من (١٦١) ، حتى يتسنى لمن يرغب فى جمع أجزاء هـذه القصة فى مجلد واحد أن يجد ترقيم صفحاتها مسلسلا .

ملخص ما جاء فى الجزء الاول

كانت « كاميل » ـ مدموازيل جوفر ـ على درجة غير عادية من الجمال ، وقد جهدت أمها على أن تبصرها ـ منذ طفولتها ـ بفتنتها .. فلما ماتت الام ، عاشت الفتاة مع أبيها ـ « الدكتور جوفر » ـ الذى لم يعن بتعليمها كثيرا ، اعتقادا منه أن الانثى لا تخلق الا لتكون زوجة وأما وربة بيت ..

وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، عند ما أحبت « لويس لوت » ، ابن أحد عملاء ابيها .. وكان فتى يقاربها فى السن ـ ان لم يكن اصغر قليلا ـ حييا ، خجولا ، فكانت هى التى شجعته على تقبيلها .. **وفيما عدا القبلات ، كان حبهما عذريا ، بريئا ، يغلب عليه طابع رفاق اللعب فى الطفولة** ..ولكن « لويس » مالبث أن انتقل من بلدة (تونيان) ، وسرعان ما نسيت الفتاة تعاهدهما على الزواج ، ودفعها افتنانها بجمالها الى محاولة تعرف أثره على الرجال ..

وكان الى جوار « البيت المنعزل » ـ الذى عاشت فيه مع أبيها ـ دار مهجورة ، تفصل بينهما حديقة أهملت حتى تكاثفت نباتاتها وصارت أقرب الى الغابة ، مما أوحى الى « لويس » و « كاميل » أن يسمياها « الغابة العذراء » .. وفى هذا البيت نزلت أسرة قس . وربطت الصداقة بين زوجة القس وبناتها الثلاث وبين « كاميل » .. ولاحظت زوجة القس أن شابا من اغنياء البلدة ـ يدعى « روكبيكيه » ـ يهيم بكاميل ، فما زالت حتى جمعت بينهما ، على أمل أن يتزوج الشاب جارتها الحسناء .. ولكن هذا كان خاضعا لسلطان أمه ، التى هددته بحرمانه من الميراث ، فلم يلبث ان انصرف عن « كاميل » .. **وجاء انصرافه هذا فى عين الوقت الذى عقد فيه زواج « مارت » ـ ابنة القس ـ على**

قس شاب ، فكادت ((كاميل)) تجن اسى ، وهى ترى ان غيرها ممن كن أقل منها جمالا ، يتزوجن دونها .

وعقب زفاف ((مارت)) ، رحلت أسرتها جميعا عن البلدة، فى رحلة طويلة ، فخلفها فى المنزل المجاور لدار الطبيب ، ضابط يدعى ((جيدوم جياكوميتى)) ، فتنه جمال ((كاميل)) فوثق صلات الصداقة معالدكتور جوفر ، لتسنح له فرص لقائها .. وراح يغازلها فى جرأة .. ثم جاءت ليلة تسلل فيها الى مخدعها ، وسطا على عفافها ..

وتوزعت الفتاة – فى بادىء الامر – مشاعر مضطربة .. الهيام بالضابط الذى فتن بها ، والذى أخذ يخاطر فى سبيل لقائها .. والمتعة الجنسية .. والخوف من أبيها .. ثم قدر لهذا الخوف أن يتغلب على ما عداه ، يوم تأكدت من انها حبلى ! .. وما ان صارحت الضابط ، حتى راغ منها .

وكادت ((كاميل)) تجن خوفا من أبيها ، وسخطا على العاشق الغادر ، وحسرة على عفافها وحالها .. وفى تلك الاثناء ، عاد ((لويس)) – زميل الصبا – وقد مات والداه ، وورث ثروة عن خاله ، وجاء يحقق حلم صباه.. **واستطاعت ((كاميل)) أن تغريه بأن يتعجل الزواج ، وقد رأت فى ذلك مخرجا لها من محنتها ..**

وعقب الزواج ، رحلت ((كاميل)) مع ((لويس)) لقضاء شهر العسل فى (نيس) ، حيث سبقهما الدكتور ((روبير كلاييس)) ، زميل لويس فى الدراسة ..

وقضى العروسان فترة حافلة بلذائذ الحب .. وفى ذات صباح ، كانت ((كاميل)) تطالع صحيفة ، واذا بها تهتف فجأة : ((يا الهى !)) ..

والآن .. تستطيع أن تتابع القصة

وفى أقل من لمح البصر ، كان «لويس» الى جانبها ، ويداه تشددان الضغط على ذراعيها اللتين جمدتا فى الوضع الذى كانتا عليه .. وهتف فى جزع :

ـ مابك يا عزيزتى ؟ .. هل تتألمين ؟ .. حدثينى ! أرجوك !

ولكنها لم ترد ، بل راح صدرها يعلو وينخفض ، وقد جمدت عيناها فى محجريهما .

وأمسك الرجل بالصحيفة ، التى كانت قد سقطت عند قدمى « كاميل » ، واخذ يتصفح الاخبار التى قرأتها ، حتى وقفت عيناه عند هذه الكلمات :

أخبار (آنام) و (تونكين)

« وصل ما ينبىء بوفاة الضابط جياكوميتى ، الذى عين حديثا مساعدا للجنرال كورسي ، والذى أصيب بمرض (الديسنطاريا) بعد بضعة أيام من تسلمه مهام منصبه » .

ولم يزد الخبر على هذا .. وكان لويس قد سمع من الطبيب جوفر ـ فى (تونيان) ـ ذكر اسم الضابط « جياكوميتى » مرتين أو ثلاث مرات .. واذ بدأت كاميل تستعيد قواها ، سألها : « أليس هو الرجل الذى كان يسكن المنزل المجاور لداركم ؟ » .. وأجابت بصوت واهن : « بلى .. احسبه هو » .

والقى « لويس » الصحيفة من يده ، وتحول الى زوجته يسرى عنها ، ويهدىء من روعها ، وقد اشتد قلقه عليها ، حتى أنه طغى على كل تفكير كان يجب أن يساوره فيحمله على محاولة تعليل اضطرابها ، أو يثير دهشته مما ألم بها .. وظلت « كاميل » جالسة فى مكانها ، وقد ثبتت نظراتها

فى الفضـاء ، وكأنها تستجلى أشـياء غير منظورة ، فى أفق مجهول ، وقد اشتبكت اصابعها بأصابع لويس .. وكان فى عينيها انفعال غريب ، وكأنما كانت ترى جثة « جياكوميتى » مسجاة على فراش المستشفى .. جثة الرجل الذى فاجأها وضمها بين ذراعيه واستمتع بجسدها قبل زواجها !

اذن ، فقد أغلقت الى الابد هاتان العينـان اللتان عرفتا أسرار جسمها قبل أن تصـل اليه أى عينين أخريين ! .. واذن فقد برد ذلك الفم الدافىء ، النهم ، الذى علمها فن التقبيل ! .. واذن فقد جمـدت وتيبست هاتان اليـدان اللتان القيتا بهـا على الفراش ـ ذات ليلة ـ وعربدتا فى جسدها !

وهرب الدم من قلب « كاميل » بعد أن قرأت النبأ ، وشعرت بأن الموت قريب منها ، فارتعدت فرائصها ، والتصقت بزوجها وهى تقول : « آه ، ابق هنا ! .. ابق بقربى ! .. ارجوك ! »

وحملها «لويس» وأجلسها فوق ركبتيه ، فأخفت وجهها فى صدره .. واذ ذاك فقط ، توقفت الرعـدة التى كانت تسرى فى جسمها .. ثم انفجرت من صدرها زفرات ونهنهة باكية لم تصـحبها دموع .. وراح لويس يقبل شـعرها المشعث ، ثم أخذ يشم رائحة جسمها وهى ملتصقة به . وما لبث قربها أن بعث الحرارة فى جسمه ، فحملها وأجلسها على مقعد .. وكانا وحيدين ، فركع الى جانبها .. وبدأت الدموع تنساب من عينيها ، فراح يمحوها بشفتيه وهمـا تطوفان بوجهها بحثا عن شـفتيها حتى عثرتا عليهما .. ولأول مرة عقب الزواج ، الفى لويس شفتى زوجته باردتين ! .. كانتا أشد برودة من الاجسام الميتة .. ولم يكن هناك أشد ايلاما للنفس من هذا الاحساس ، ومع ذلك فقد وجد

لويس أن قوة خفية أخذت تجذبه الى هاتين الشفتين الباردتين !.. ولما أدركت كاميل ماوراء هذه التصرفات منه، ابعدته عنها بذراعيها ، ومضت تصده :

ــ آه .. لا ! لا ! ليس الآن .. أرجوك ، انني مريضة ،

وتركها وقد امتلأ قلبه بالحزن ، واستبد به الالم ، كما يحدث لكل اولئك الذين تنحصر حياتهم فى حبهم !.. وخيل اليه أنه قد فقد سعادته بسبب تلك النوبة العصبية المفاجئة، التى انتابت « كاميل » ، فجلس فى مقعده ــ وقد أسند يديه فوق ركبتيه ــ ونكس بصره الى الارض وقد غمرته نوبة من التفكير العميق .

أما كاميل ، فقد غشيها النعاس وهى دامعة العينين . وراح لويس يتأملها وهى نائمة ، فلم يملك أن يحول نظره عن جسدها الحبيب . وكانت أهدابها تختلج بحركة عصبية ، بينما انسدل شعرها الطويل على جانب من كتفها اليمنى .. وكانت نوبة الانفعال التى انتابتها قد بعثت اللون الاحمر الى خديها .. وعلى احدى ذراعيها ، استند رأسها ، بينما تهالكت الذراع الاخرى الى جنبها ، وكأنها عدمت كل قدرة على الحركة .. وبدت يدها بديعة ، بضة ، متناسقة ، اغرت لويس بأن يقترب منها فيطبع عليها قبلة .. وكان نعاس « كاميل » خفيفا ، حتى أن تلك الحركة البسيطة نبهتها ، ففتحت عينيها ..

وكانت أعصابها قد هدأت ، فابتسمت ــ فى هذه المرة ــ لزوجها !

وانتهى اليوم دون أى حادث ، فقد خرجا لنزهة قصيرة ، ثم ذهبا الى المسرح ، فشهدا فصلا من رواية « ريجوليتو » .. وعادا للنوم فى ساعة مبكرة ، وقد تجنبا الحديث عن الخبر الذى أثار ــ فى الصباح ــ اضطرابا فى حياتهما الهادئة .. وكان الاعياء قد أنهك قواهما .

على أن « كاميل » استيقظت فجأة فى بهيم الليل .. ولم يكن هناك أى صوت ، لا فى المنزل ، ولا فى الخارج ، ومع ذلك فقد خيل اليها أن حركة ما عكرت عليها نومها .. حركة من تلك الحركات التى يتوقع الانسان أن تعود ثانية ، اذا هو مكث فى فراشه ، وارهف حواسه ، ممسكا عن اتفه اختلاجة ، اللهم الا خفقان قلبه !

ومدت يدها بحركة غريزية فلمست ذراع لويس ، فاذا ذلك الاتصال كاف ـ على بساطته ـ لأن يبعث الثقة الى نفسها .. ومرت دقيقة ، ثم أخرى .. ولم يكن هناك ما يتحرك ، حتى أنها شعرت تدريجيا بالهدوء يعود الى نفسها ..

لابد أنه حلم مزعج ، اوحى به الخبر المروع الذى قرأته فى الصباح ! ..

***

وفجأة أخذ جسمها يرتعش ، واختنقت فى حلقها صيحة ألم طاغ . فقد أحست بهزة قصيرة ،قوية ، صامتة ، اتبعثت من جوفها ! ..

وتساقط العرق البارد على وجهها ، ووضعت راحتيها على بطنها .. المكان الذى تحركت فيه حياة غامضة جديدة .. وأخذت تنتظر مرة أخرى ! .. وما لبث ان عاودها الاحساس باحتكاك منتظم ، يكاد يكون مستمرا ، فى جوفها .. ثم شعرت بهزة ثانية ، فثالثة .. وكانت كل هزة جديدة أضعف من سابقتها ، وأبطأ حدوثا !

ثم انتهى كل شىء ، وظلت « كاميل » ساكنة بين أغطية فراشها .. تراقب الفجر وهو ينبثق ، ويطارد فلول الظلام فوق الجدران ، وقد استغرقت فى التفكير ..

فكرة واحدة جالت فى رأس المرأة الصغيرة ، هى : « اننى أم »

انها أم ! .. ولكن امومتها لم تأت عن الزوج النائم الى جانبها ، يتردد فى اذنيها صوت تنفسه المنتظم .. وانما جاءت عن الرجل الآخر ، الذى مات بالامس ، والذى دنس شرفها ..

لقد ايقنت من ذلك ، على الرغم من جهلها . اذ كانت قد قرأت ، أثناء بحثها فى كتب والدها الطبيب جوفر : « ان حركات الطفل وهو فى بطن أمه ، تبدأ مع بداية الشهر الخامس » .

وهكذا كانت قد أصبحت أما منذ خمسة شهور .. منذ ضمها الضابط لأول مرة .. منذ تلك اللحظة التى ألقت بها الاقدار بين يديه كشىء معدوم الارادة .. اجل ، منذ ذلك الوقت أصبحت أما ! .. وها هى ذى ، فى الساعة التى يختفى فيها الضابط من الوجود ، تشعر بجنين يتحرك فى أحشائها ، كأنه يريد أن يثبت لها وجوده ، وان يثبت لها أن موت الضابط لم يمحه من صفحة حياتها، وان زلتها تقف لها بالمرصاد الى آخر العمر !

وظهر لها – فى ضوء الشفق – وجه الزوج النائم .. وجهه الجميل ، وعيناه المغلقتان .. هذا هو الرجل الذى خانته ، فيا لها من مجرمة آثمة ، لأنها تزوجته وهى غارقة فى بحار الشك ، ولم تشأ أن تنتظر حتى تبلغ شاطىء اليقين ! .. أما الآن ، فان الوقت قد فات ، ولم يعد فى امكانها أن تعود الى الوراء .. ان الحوادث هى التى تتحكم فى الموقف، وعليها أن تستعد لاحتمال العواقب مهما تكن !

وكان أول ما خطر ببالها ، ان قالت لنفسها : « لن أقول

شيئا ، فليست هناك أية علامة واضحة على جسمى ! .. اجل ، لن اتكلم .. بل سأنتظر ! »

ولكنها ما لبثت أن رأت أنه كلما طال سكوتها ، ازداد تعذر تعليل انتفاخ جسمها فيما بعد .. ولقد كان لويس خليقا بأن يصدق ما قد تقوله له ، ولكن قلب المرأة لم يطاوعها على الكذب !.. واستبد بها الالم والحيرة . وفكرت لحظة فى ايقاظ زوجها ، وفى الاعتراف له بكل شىء ، ولكن التصرف كان كفيلا بالقضاء التام على سعادتها الى الابد. .. وما كادت تفكر فى انتهاء تلك السعادة ، حتى انهارت ارادتها ، وقالت فى نفسها : « لابد من أن أكذب.. يجب ! »

وتحولت تحسب حسابا واضحا ، اضطربت له نفسها اذ قالت : « بعد خمسة أشهر يولد الطفل .. ويمكن بمساعدة طبيب، أن يصدق لويس أن الطفل ولد قبل موعده بشهرين، وكثيرا ما يحدث هذا » .

وامتلأت الغرفة بضوء النهار ، وقد زحف خلال النافذة. ولكن لويس استمر فى نومه ، نوما عميقا أشبه بنوم الاطفال، وقد ظهر الهدوء على وجهه الجميل . وأخذت « كاميل » تتأمل قسماته ، ففاض بها الاعجاب والحب ، وقالت فى نفسها : « ما اجمله ! .. كم أحبه ! » .. واستولت عليها نوبة من تلك النوبات التى تدفع المرء الى أن يتفانى فى الحب ، ويقدم على كل تضحية من أجل الحبيب .. تلك النوبات التى تقترن بالحب الحقيقى عند المرأة .. وقالت لنفسها : كيف تخونه وهو الذى أعاد اليها السعادة ، بل الشرف ؟ ..

أية جريمة هذه ؟ .. ومع ذلك ، فان الكذب هو ثمن المستقبل المأمون ، وهو الضمان لدوام حبهما !

***

وعذبتها الحيرة .. هل تسكت فتخدعه ، وتخون ثقته ؟ .. أو تتكلم فتقضى على سعادته وحبه ، قبل أن تقضى على سعادتها وحبها هى ؟ .. وكان لابد لها من أن تستقر على رأى .. واقتربت شفتاها من عنق زوجها النائم ، ثم التصقتا به ، وطبعتا قبلة صادقة .. وأستيقظ « لويس » على هذه الحركة الناعمة ، الحبيبة ، ففتح عينيه ، ومكث ساكنا برهة ، يراقب « كاميل » ويتأملها . فقد كانت « كاميل » ـ بالنسبة له ـ مصدر جاذبية تتجدد فى كل يوم .. واحتواها بين ذراعيه ، فالتصقت به، ودفنت وجهها فى صدره ، لا تجرؤ على أن ترفع اليه بصرها ..

وفجأة ، أحس لويس بدموعها تجرى دافئة على صدره .. وجزع من أجلها ، وتناول رأسها بين يديه ، واضطرها الى أن ترفع وجهها اليه .. وكانت عيناها السوداوان تسبحان فى الدموع ، فتمتم قائلا : « اتبكين يا كاميل ؟ .. لماذا تبكين ؟ .. أنك تخفين عنى شيئا ، فتكلمى يا كنزى ! .. أرجوك ، تكلمى ! »

ونظرت اليه ، فأضاءت فى عينيها ـ المخضلتين بالدموع ـ ابتسامة عابرة ، شبيهة بشمس بعيدة تضىء الأفق وهو يرزح تحت سيول الأمطار . وقالت : « أصبت .. أن لدى شيئا أريد أن أذكره لك ، ولكنى ـ كما ترى ـ لا أجرؤ على ذلك ! » .. ولم تبذل جهدا أو تكلفا وهى تقول ذلك .. قالته بتلك المقدرة على الكذب التى تملكها كل امرأة عاشقة تريد أن تدافع عن حبها .. وانبعثت الكلمات بلهجة ادرك معها لويس ـ من تلقاء نفسه ـ كل ما لم تكن تجرؤ على ذكره . فأشرق وجهه ، وهتف : « هل أصبحت أما ؟ »

وعادت تخفى وجهها فى صدره ، وقد علت أساريرها حمرة

الفتاة الطاهرة البريئة ، ثم همست فى أذنه قائلة : « آه .. اننى أحبك ! »

ولم يجد كلاما مناسبا يوجهه اليها ، فأخذ يطيل النظر الى جسمها ، وهو كالأبكم لفرط سعادته .. وخيل اليه أن الاعتراف الذى سمعه منها قد فتح صفحة جديدة فى غرامه . وما لبث أن أخذ يدى « كاميل » وطفق يقلبهما فى صمت، وهو ممتلىء احتراما لأمومة زوجته .. وسبح فكره فى عالم السعادة الجديدة ، وقد امتلأ فخرا لأنه بهذا الحدث قد أنشأ اسرة .. واستغرق يتأمل ذلك العمل العجيب الذى تقوم به الطبيعة ، دون أن يكون لارادة العاشقين أى يد فيه .. لقد كانت الطبيعة تعمل على فى صمت وسكون ، بينما هما يتبادلان الحب . وكانت دائبة السعى للوصول الى غايتها ، عن طريق العناق والقبلات التى كانا يتمتعان بها .. وها هو ذا حبهما يخلق لحما ودما .. وها هى ذى حياة جديدة تتولد من عصير قبلاتهما !

أما «كاميل»، فانها لم تكد تطمئن الى الافضاء باعترافها ، والى الخلاص من مأزقها ، حتى بدأت تشعر بالالم لأنها استطاعت أن تخدع زوجها بهذه السرعة والسهولة..وكانت الثقة التى ابداها « لويس » تعذبها ايما عذاب ، لا بسيما وقد راحت تقرأ فى عينيه آيات العبادة والاحترام ، التى بعثها فى نفسه ادراكه لامومتها .. وخيل اليها أن الظروف كانت تحيل هذه العبادة ، وذلك الاحترام ، الى شىء فظيع ، يناقض الطبيعة وقوانينها ، فشعرت — مرة أخرى — برغبة طاغية فى أن تصيح به : « اننى أكذب ! أكذب ! .. لقد خنتك ، فأقتلنى ! » .. ولكن الجبن انتصر على هذه الرغبة النبيلة العابرة ، فقالت لنفسها تبرر مسلكها : « انما أكذب من أجل سعادته .. من أجل الخير . أفلست أحبه ؟ »

ولاح لها ذلك التعليل معقولا ، الى درجة انها خرجت من تلك التجربة الاولى وقد ازدادت تصميما على الكذب . غير انه كانت هناك تجربة أخرى تنتظرها .. تجربة لم تكن تتوقعها . فقد خرجا ـ عقب تناول طعام الافطار ـ للنزهة فى الحدائق . واذ لاحظ لويس اضطرابها ، جلس الى جانبها .. ولم يكن قد تكلم حتى ذلك الوقت ، فلم يلبث أن قال :

ـ اسمعى ما أقول ، وسامحينى ! .. اننى لا أريد أن أزعجك أو اخيفك يا غرامى ، ولكنى أصارحك بأننى أشعر بالخوف وأخشى من وقوع حادث ما .. وأعتقد أن من الخطر أن نسافر الى ايطاليا وانت على هذه الحال ، ولذا فلابد لى من أن اعرف مبلغ احتمالك لمتاعب السفر ، وأرجو أن توافقى على أن تستشيرى طبيبا . ولكن .. ماذا أصابك ؟

كان وجه « كاميل » قد شحب عند ما سمعت ذكر الطبيب .. كيف حدث أنها لم تفكر فى ذلك ؟ .. الطبيب ؟! لابد أن يكون روبير كلاييس ! .. وأدركت فى الحال أن صرح أكاذيبها الضعيف سوف ينهار فى لحظة واحدة ، فهمست بصوت متحشرج : « اواه ، لا ! .. لست اريد طبيبا .. ارجوك ! »

وتشبثت بمقعدها حتى لا تقع .. ولم يدهش لويس لذلك ، فقد حدثه روبير كلاييس ـ أكثر من مرة ـ عن شدة معارضة بعض النساء للفحص الطبى ، بدافع من الحياء ، فرأى لويس فى اضطراب زوجته نوعا من ذلك الحياء ، الى جانب انه بدا متمشيا مع الانفعال الذى يلازم المرأة فى مرحلة الحمل .

وحاول أن يهدىء روعها ، فقال : « مم تخافين ياعزيزتى ؟ .. انها زيارة قصيرة لروبير ، وهذا كل ما هنالك ! .. وانك لتعرفين صواب حكم صديقنا . لن يكون هناك ما يؤلم . ألا

تثقين فى ؟ » .. ولكن كاميل عادت تقول ، وهى تبكى :
« كلا ! لا أريد طبيبا .. لا أريد طبيبا ! »

ولم يلح لويس كثيرا ، الا أنه لم يغير رأيه ، واعتبر نفسه آثما اذا اجابها الى ما تريد من عدم استشارة الطبيب. وكان يعلم كتمان صديقه للسر ، كما كان يعلم أنه نجح فى اكتساب ثقة كثيرات من النساء ، فلم يخفق الا فى ظروف معينة .. وكثيرا ما سمعه يقول : « يكفى فى هذه الحالات أن تلقى بعض أسئلة على المرأة ، وأن تجيبك عن اسئلتك بصدق ، حتى تدرك حقيقة حالتها بالضبط .. أما الباقى فأمر بسيط ! »

وفى تلك الاثناء كانت كاميل قد بدأت تستعيد ارادتها ، فأقسمت الا تبوح بسرها قط ، ولو كلفها الكتمان حياتها . ولما استعادت هدوءها لاحظت أن زوجها لا يزال قلقا ، فحاولت أن تحول افكاره ، واقتربت منه ، وأخذت تضمه اليها فى شغف عظيم كما اعتادت أن تفعل فى أيام الزواج الاولى .. ولكن لويس راح يحاول أن يبعدها عنه بلطف ، وهو يبادلها القبلات .. وأدركت ــ فى شىء من الكمد والغيرة ــ أن عاطفة جديدة قد بدأت تنسيه عاطفته نحوها . وقد سبب موقفه هذا جرحا فى قلبها ، فشعرت ــ فى شىء من الألم ــ أن المخلوق الجديد الذى كانت تحمله ، قد بدأ يحرمها من الحب الوحيد الذى كانت ترى أنها تستحق أن تحسد عليه .. حب لويس . فقد خيل اليها أن الحدث الذى دب فى احشائها ، قد صرف لويس عن اشتهاء جمالها !

***

وعادا يواصلان نزهتهما .. وفجأة ، قابلا روبير كلاييس ، فشعرت كاميل بحقد شديد نحو ذلك الشاب الذى اعتادت

أن تتهرب دائما من نظرته النافذة .. لقد كان عدوها، وكان الأداة التى توشك أن تكشف النقاب عن أسرارها . ولما ساروا بضع خطوات معا ، اعتذرت « كاميل » بتعبها وجلست على مقعد . أما لويس ـ الذى كان منشغلا بالتحدث الى روبير ـ فقد استمر فى سيره الى جانب صديقه ..

وجلست « كاميل » تعبث فى الرمل بطرف مظلتها ، وهى تنظر الى الرجلين وقد أوشكا على الوصول الى نهاية المتنزه .. ولما عادا ومرا أمامها ، ألقى عليها لويس نظرة حب رقيقة ، لم تلمحها هى ، اذ شرد بصرها وقد راحت الافكار تتتابع فى مخيلتها ، والرؤى تراود عينيها .. كم من حوادث تعاقبت فى الاربع والعشرين ساعة الماضية ! .. عرفت نبأ وفاة الرجل الذى عبث بها وخانها ، ثم تأكدت من أنها أصبحت أما .. ولقد عرف لويس أمر حملها ، وقد كانت تعمل لذلك ألف حساب .. وكأن خطورة هذه الحوادث وسرعتها قد سببت لها نوعا من الغباء .. وراحت تسائل نفسها : على من تعتمد فى هذه الظروف الحرجة ؟ .. ومن تستشير ؟.. أواه ، يا للتعاسة ! .. لم يكن هناك معين ولا ناصح .. كانت معدومة القوة ، جد جاهلة ، وجد ضعيفة.. ان المرأة ـ فى أمثال هذه الازمات ـ تلجأ الى الصلاة ، فتجد فيها الشجاعة والعزاء الوقتيين ، كما يحدث للمريض عندما يتناول شرابا منعشا يسترد به بعض قوته .. ولكن كاميل لم تكن تعرف الصلاة !

وعاد اليها لويس مصطحبا صديقه . وقال لها : « لقد قبل روبير ـ يا حبيبتى ـ أن يعود معنا الى المنزل لتناول الغداء » .

ولم تجرؤ على البحث عن ملجأ تهرب اليه فرارا من نظرات الطبيب ، وقد خيل اليها أن سرها مكتوب على

جبينها ، وان روبير يقرأه بوضوح .. وقال لها هذا الأخير : « عسى ألا أزعجك بحضورى ، يا سيدتى العزيزة ؟ » . فتمتمت قائلة : « بل أن حضورك يسرنا ! »

ولقد أدركت جيدا أن لويس يريد أن يرتب مقابلة خاصة بينها وبين الطبيب . وهذا ماحدث فعلا .. فقد عادوا الى المنزل ، وبعد أن انتهوا من تناول الطعام ، سادهم الصمت فترة ، ثم لاحظ لويس أن سجائره قد نفدت ، فنهض قائلا : « لقد نسيت أن اشترى بعض السجائر ، ولا يزال فى الوقت متسع لشرائها . فهل تسمحين لى يا كاميل أن أذهب .. سأتركك مع روبير ! » .. وابتسم روبير . وحاولت كاميل أن تعترض ، فقالت :

— هل تخرج بنفسك لشراء السجائر ؟ .. مامعنى هذا ؟ .. ان الخادم جان موجود ، فلم لا ترسله ؟

— وكيف يتسنى للخادم أن يختار السجائر التى تروق لى ؟ .. اننى لن أتأخر ، وسأعود بعد خمس دقائق على الاكثر .

واذ انفرد روبير بكاميل ، قال لها : « لكم أنا آسف لازعاجك يا سيدتى ، ولكنى أستجيب لرغبة زوجك .. ولا ريب أنك تعرفين لماذا تركنا وحدنا » . فأجابت بضعف : « نعم ، ولكنى لست فى حاجة الى ذلك .. فلست أعانى البتة من أى شىء !» .. وأعاد روبير الكرة ، قائلا : « هذا حقيقى ، ولكن لويس يحبك ، وهو محق فى قلقه على من يحب .. وقد طلب منى أن أطمئنه عن حالك ، وليس فى ذلك ما يؤاخذ عليه .. فان حالة الحمل عند المرأة، ووجود جنين فى أحشائها ، حالة مرضية دقيقة ، ولو كانت هذه المرأة مثلك .. اعنى ان لها من قوة بنيتها ما يساعدها على احتمال التجربة .. اذ لابد من احاطتها بكثير من العناية ! »

ـ ولكنى لا أعانى من شىء مطلقـا .. أؤكد لك اننى فى أحسن صحة ..

وبدت فى اهداب عينى روبير حركة بسيطة ، نمت عن نفاد الصبر . ولكنه كبح مشاعره ، وقال : « أرجو يا سـيدتى ألا تجعلى المهمة التى قبلت القيام بها ـ بدافع من صداقتى لزوجك ـ صعبة .. وأعيد على مسامعك انه لا ينبغى أن تخافى شيئا . فهل لك أن تجيبى عن أسئلتى فقط ؟ .. هل لك أن تذكرى لى ما هى الاعراض التى جعلتك تعتقـدين أنك أصبحت أما ؟»

ولم تجب كاميل ، بل حافظت على صمتها الشبيه بغضب الاطفال ، وهى تقول فى نفسها : « انتهى كل شىء ! .. لقد افتضح أمرى ! » .. ولم يلبث جلدها ـ الذى احتمل كل عناء الايام الاخيرة ـ ان انهار فجأة ، فانفجرت تبكى بدموع حارة .. وكان « روبير » ـ طيلة الوقت ـ يتأملها باهتمام، ثم نهض عن مقعده ، وحاول أن يقترب منها .. ولعلها ظنت انه سيستعمل معها العنف ، فقد بسطت يديها الى الامام ، وهى تصرخ فى جزع : « لا .. لا أريد ! »

***

على أن يديها ارتختا فجـأة ، وتدلتا الى جانبيها .. ثم تهالكت فى مقعـدها ، وهى ترسل أنينـا واهنا .. وكان الطبيب يعرف تماما هذه الظاهرة الغريزية ، التى تنتـاب المرأة عنـدما تحمل لأول مرة ، فجلس يتفرس فيهـا ـ فى تساؤل صـامت ـ وهى غائصة فى مقعـدها . ثم أومضت عيناه ببريق فضح ماكان يجول بخاطره . وأدركت «كاميل» ذلك ، فأيقنت من انه قد قضى عليها بالهلاك ..وأوحى اليها الشعور بالخطر الداهم ، بأن تسلك الطريق الوحيدة التى رأت انها قد تؤدى بها الى النجاة . فاذا بها تنهض واقفة،

وتقول والكلمات تتعثر على شفتيها ، وكأنها تجد عناء فى الانطلاق :

ـ انك رجل شريف ، ألست كذلك ياسيدى ؟.. حسنا ، اننى ألجأ اليك ! .. اننى واثقة من أن هناك جنينا فى أحشائى.. ولكن هذا الجنين ليس من زوجى.. أتسمعنى ؟! .. وها هى ذى حياتى بين يديك ، فاذا أردت أن تقتلنا نحن الاثنين ، فلا تتردد فى افشاء سرى !

وكان روبير يحب لويس حب الاب لابنه ، لا الصديق لصديقه الذى يماثله سنا . فما ان سمع قولها ، حتى بدرت منه حركة تنم عن الغضب .. واندفع نحو كاميل .. ولم يجد غير هذه الكلمات يوجهها اليها : « أيتها الشقية ! لماذا فعلت ذلك ؟ »

وشعرت بشدة الرعب ، حتى لقد أسفت على انها تكلمت واعترفت . وكادت تصاب بالجنون بعد أن أدركت أن سرها أصبح معروفا لدى هذا الرجل.. وتمتمت وهى تلقى بنفسها عند قدميه ، وقد فاضت دموعها كالسيل : « أواه .. اننى أرجوك .. أتوسل اليك ألا تذكر شيئا للويس .. فماذا يهمك أنت من ذلك ؟.. انك لن تلبث أن ترحل عنا ، وقد لاترانا ـ بعد ذلك ـ الى الابد ، فلماذا تحرمنامن السعادة ؟ .. ان لويس لايعرف شيئا ، وأنا أحبه كما ترى ، بل أنا أعبده ! .. لقد حدث كل هذا قبل الزواج ، وقبل أن أرى لويس بعد غيابه الطويل .. لقد وقع ذلك منذ أربعة أشهر ، وكان سببه وغد تعس اغتصبنى عنوة .. ولقد مات ! .. هل عرفت كل شىء ؟ »

وظلت عند قدمى الشاب ـ الذى عاد الى مقعده ـ وهى ترتعد ، والدموع تنهمر من عينيها .. وانبعث وقع قدمين ، فأسرع روبير بالابتعاد عنها ، وهو يقول : « اسكتى !.. خذى حذرك ، فقد عاد زوجك ! » .. واستولى عليها الذعر ،

فأسرعت تلوذ بالغرفة المجاورة .. ثم سمعت الصديقين وهما يتحادثان بصوت خافت ..

ترى ماذا كانا يقولان ؟ .. لا ريب أن روبير كان يقص عليه التفاصيل .. ترى هل كان بوسعه أن يخفى الحقيقة عن الرجل الذى يحبه ؟.. هل يخون ثقة لويس من أجل كاميل ؟ .. وشعرت للمرة الاولى - منذ بدأت كل تلك التجارب القاسية - بالرغبة فى الموت ، والموت فورا دون ابطاء .. واقتربت من النافذة ، وكانت فى الطابق الثالث ، وتطل على الساحة الداخلية للمنزل .. ودقت الساعة - اذ ذاك - مؤذنة بالواحدة بعد الظهر ، والشمس تشع الحرارة فى الجو .. ورأت الخدم يروحون ويجيئون - فى الساحة - وقد دقت حجومهم لبعد المسافة بينها وبينهم .. وكانت نوافذ المبنى مفتوحة ، وقد أسدلت عليها الستائر .. وهتفت كاميل لنفسها : « لكم اود ان أموت .. ان ألقى بنفسى من هنا ! »

وخلف باب الحجرة الموصد ، كان الحديث لا يزال دائرا بين الصديقين .. وكان روبير هو الذى يتكلم - معظم الوقت - وقد راح يرفع صوته بين حين وآخر .. وقالت كاميل فى نفسها : « أواه ! .. انه يعرف الآن كل شىء ! »

وكانت الساحة قد خلت من الناس ، فى تلك الاثناء .. وهبت نسمة من الهواء العليل على ستائر النوافذ فداعبتها ، وعلى آثار الدموع فى عينى كاميل فبخرتها .. وبثت فى المسكينة شيئا من الانتعاش ، فاذا بها تحس بكل ما للحياة من روعة وجمال وجاذبية .. وملأت صدرها بالهواء المنعش ، فذكت رغبتها فى الحياة ، وفى رؤية الاشجار ، وفى الكلام ، وفى الارتماء بين ذراعى انسان تحبه ، وفى الاستمتاع بالزهو بما كانت عليه من جمال ! .. ومع ذلك تمتمت شفتاها مرة أخرى : « ليتنى أموت ! »

***

وفتح باب الغرفة فى تلك اللحظة ، وسمعت صوتا يهتف : « كاميل ، يا حبيبتى .. أين أنت ؟ » .. وكان صوت لويس ، ومع انها لم تر صاحب الصوت ، اذ كانت تقف وراء ستائر النافذة، الا انها تبينت نبرات اللطف والحب المألوفة .. وخطر لها سؤال ، كاد وجيب قلبها ان يقف انفعالا من أجله ، وارتقابا لجوابه : ألم يعرف شيئا بعد ؟

وكفت عن النظر الى الفراغ ، وشعرت برغبة عظيمة تدفعها الى رؤية زوجها ، فبرزت من وراء الستائر ، ووقفت ساكنة لاتتحرك ، ولا تجرؤ على التقدم .. وأسرع اليها ، فتناولها بين ذراعيه ، ووضع فمه طويلا على جبينها ، وعلى عينيها ، ثم شفتيها . وقال :

ــ يا حبيبتى .. يا زوجتى العزيزة ، لكم أحبك !.. سامحينى اذ لجأت الى روبير ، فلعلك رأيت أن هذا كان ضروريا .. والآن ، هاأنذا قد شعرت بالطمأنينة ياكنزى !.. وانك لترين ان المسألة كانت فى غاية البساطة !

والتصقت به وهى لا تعى ــ بل لاتكاد تسمع بوضوح ــ ما كان يقول . ولكنها كانت تدرك شيئا واحدا ، هو أنه يحدثها بحب ، وانه يجهل كل شىء عن سرها .. وتمتمت فى وهن : « وأين صديقك ؟ » . فأجاب : « لقد انصرف لأنه مسافر .. سيتغيب عن (نيس) اليوم ، ولكنه سيعود فى الغد ! .. أما نحن فلن نبقى طويلا هنا » .

وسرت ــ فى أول الامر ــ لفكرة السفر .. فان تلك المدينة التى قرأت فيها نبأ وفاة « جياكوميتى » ، وذلك الفراش الذى أحست فيه بأولى حركات الجنين فى أحشائها ، وتلك الغرفة التى تمكن فيها روبير كلاييس من انتزاع سرها ، وتلك الساحة التى كان يغمرها ضوء الشمس عندما شعرت

باليأس ، وكادت تقدم على الانتحار .. كل هذه الاشياء كانت تبعث الرعب فى نفسها ، فتمنت لو تمكنت من أن تهرب منها دون ابطاء ، وترحل عنها فى الحال .. وقالت متسائلة : « والى أين نذهب ؟.. الى ايطاليا ؟ » . فهز لويس رأسه ، وقال : « لا .... فان الاسفار لا تناسب حالتك ، ويجب أن تتجنبى كل ما يسبب لك التعب.. لقد وجدت روبير قلقا مترددا بعض الشيء ، أثناء تشخيصه لحالتك ، مع أنه شديد الثقة والاعتداد بنفسه وعلمه » .

ـ أؤكد لك أننى لا أشعر البتة بأى تعب أو اعياء !

ـ ان المرأة التى تحمل جنينا فى أحشائها ، تعتبر فى حكم المريضة ، وقد لا نجد فى بعض الفنادق ـ التى سننزل بها ـ ما تحتاجين اليه من وسائل الراحة والعناية ، أو قد لانجد طبيبا يمكن أن نستشيره فى حالة الضرورة ، وليس فى امكاننا أن نطلب من روبير أن يصحبنا فى سفرنا .

ـ لا !.. حقا .. فماذا نصنع اذن ؟

ـ لا أرى أفضل من العودة الى (تونيان) ، ولا بد أن يكون كل شيء قد أعد الآن لنزولنا هناك ..

ـ الى تونيان ؟ ولماذا ؟ .. اننى أشعر بسعادة عظيمة ونحن وحدنا .. معا !

كانت تعرف أن العودة الى تونيان معناها التعرض لفحص والدها الطبى ، ومعناها انهيار كل أكاذيبها ! .. ولكن لويس لم يكن على بينة من هذا ، فعجب لممانعتها فى العودة وقد كان يتوقع أن تكون مشوقة الى تونيان .. ورمق كاميل بتلك النظرة المرتابة ، التى كانت تخشاها ، وقال : « ولماذا لانعود الى تونيان ؟.. ألا ترغبين فى رؤية والدك ؟ .. انه أحسن طبيب يمكن أن يعنى بك !.. اننى أشعر من نحوه ـ ونحو روبير ـ بثقة لاتداخلنى نحو غيرهما من الاطباء . هل لديك سبب آخر للاعتراض يا عزيزتي ؟ »

وفى هذه المرة ، خافت كاميل أن تثير شبهاته وشكوكه ، فقد كانت الدهشة المرتسمة على وجهه تبعث الرعب الى نفسها . فقالت وهى تمسك بيده وتضعها على خدها ، كما اعتادت أن تفعل فى كثير من الاحيان : « هذا صحيح ، وأنت على حق .. سأكون على استعداد للسفر متى شئت ! »

***

وقررا السفر بعد ثلاثة أيام .. وبدت تصرفات روبير - فى هذه الفترة - غريبة فى نظر لويس . فقد بعث ببرقية يعتذر فيها عن عدم تمكنه من العودة الى (نيس) - حسب وعده - متعللا بحالة «لوسى» - خليلته - الصحية . ورد عليه لويس فى الحال ، ليخبره بعزمه على مغادرة (نيس) ، وألح عليه لكى يحضر فيقضى معهما الليلة الاخيرة فى تلك المدينة .. ولكن روبير كرر التعلل بحالة « لوسى » .

أما الحقيقة ، فهى أنه شعر بعد الصدمة التى تلقاها - على أثر اعتراف كاميل - بأنه فى حالة ماسة الى الانفراد بنفسه ليتدبر الامر .. ومهما يقل رجال علم الاخلاق عن الضمير ، فان نظرياتهم لا تمنع من القول بأن صوته يصبح أقل ارتفاعا ، وحديثه أقل وضوحا ، حين تشتد حاجة الانسان اليه والى سماع رأيه .. وراح الدكتور روبير يسائل نفسه : « ماذا يجب أن أصنع ؟ .. لقد استجبت لرغبة هذه المرأة ، وخدعت لويس بتصرف يكاد يكون غريزى . فهل هذا من حقى ؟ .. ومن الذى أعطانى هذا الحق ؟ .. أهو سر المهنة ؟ .. ليس سر المهنة الا اصطلاح اتفقت عليه الجماعة ، ويمكن أن أتخلى عنه كلما وجدته يتعارض مع حكمى الخاص ! .. أم انه احترام السر الذى اعترفت به المرأة بملء ارادتها ؟ .. ولكنها لم تعترف الا لانها شعرت

بنفسها عديمة الحيلة ، عاجزة عن أن تخفى عنى الحقيقة !..
لا ، ان لى تمام الحق فى ازاحة الستار عن كل شىء ، اذا راق لى أن أفعل ذلك .. ولكن ، هل من واجبى أن أفعل ؟

« اننى اذا أمسكت عن الكلام ، كنت مشتركا مع كاميل فى الاساءة الى لويس ، وفى خداعه ، على الرغم من تلك الثقه التى يولينى اياها .. ولا ريب فى ان هذا مما تعافه نفسى.. ولكننى اسىء اليه وأخدعه لكى لا أقتله.. هذه هى حجتى ! .. ان هذه المرأة هى حياته كلها ، وهى فوق كل شىء تحبه، فهذا مما لايقبل جدلا !.. وهو اذا استمر على جهله بالحقيقة، عاش سعيدا جدا الى جانبها .. أفليس القضاء على سعادة انسانية جريمة أفظع من جريمة الكذب ؟ » ..

وظل الطبيب يومين منفردا بنفسه ، يدرس الموقف كأنه مهندس يبحث مسألة فنية دقيقة . وما لبث ان ذهب الى (نيس) ـ فى اليوم الثالث ـ وقد استقر على رأى ، وبدا هادىء المظهر الى درجة كبيرة .. فلما التقى بلويس ، أخذ يشرح له أسباب غيابه فى اليومين السابقين قائلا : « لقد كانت لوسى تتألم من مرضها ، وكذلك كانت تشكو لأننى أتركها وحدها كل يوم تقريبا ! »

وكان الطعام الاخير الذى تناوله الثلاثة معا ، تسوده روح المرح . وتمكن روبير فى النهاية من الاختلاء بكاميل لبضع لحظات ، فقال لها فى شىء من الصرامة : « لقد شغلت بالتفكير فى الامر ـ ياسيدتى ـ منذ مقابلتنا الاخيرة ، وأرجو أن تعتقدى أنه لولا الخطر الذى يتهدد حياة لويس ، لما منعنى أى سبب عن أن أكشف له الحقيقة .. ولكنك أصبت، حين قلت أن المسألة تتعلق بحياته .. على اننى أود ـ قبل كل شىء ـ أن أتأكد من انك قد أخذت على غرة ، حين اعتدى عليك ، وان حبك لزوجك حب حقيقى ! »

فأجابت المسكينة : « تسألنى اذا كنت أحبه ؟ .. أواه ، اننى لأفضل الموت فى هذه اللحظة ، على أن أعرف أنه يشقى .. أليست هناك وسيلة للموت، ميتة تبدو للناس طبيعية؟ »

وتأثر روبير من الاخلاص الذى كان يلمسه فى كلماتها فقال لها :

ـ كلا ، يجب أن لا تموتى .. كل زلة يرتكبها الانسان يمكن أن يكفر عنها ، وعليك أن تمتثلى لما آمرك به . فهل هناك من يعرف بما وقع ، غيرنا نحن الاثنان ؟

ـ لا ! ليس هناك غيرنا .. فقط .

ـ حسنا ، اذا وصلت الى (تونيان) فعليك أن تحذرى ما استطعت ،وان تتحاشى الظهور كثيرا أمام والدك ، لأنه قد يدرك الحقيقة من عدة علامات خارجية وحركات لا يفهمها غيرنا نحن الاطباء .. لقد أقنعت لويس بأنك غير معرضة لأية أخطار ، وان حالتك طبيعية ، وليس من الضرورى أن يعرضك للفحص الطبى من جديد . ولذلك تستطيعين أن تطمئنى من ناحيته .. ولكن تبقى اللحظة الرهيبة الدقيقة، لحظة الوضع .. فهل يمكن أن تذكرى لى متى بدأ الجنين يتكون فى احشائك ؟

ـ منذ اربعة اشهر ونصف ، على ما اعتقد !

ـ اذا كان الامر كذلك ، فسيتم الوضع حوالى شهر ابريل ، أو مايو ، ولهذا سأنظم وقتى بحيث أتمكن من قضاء بضعة أسابيع بمدينة (تونيان) فى تلك الفترة .. ولن يكون غريبا أن أتولى الاشراف على عملية الوضع . وما دام لويس يثق فى ثقة مطلقة فاننى ارجو أن أتمكن من اقناعه بأن الجنين جاء مبكرا .. ولكننى ـ منذ اليوم الى أن يحين ذلك الوقت ـ لن أستطيع رؤيتك ، ولا أخفى عنك اننى سأتألم فى كل لحظة لأننى كذبت على صديقى ، ولكن .. اذا شعرت بالحاجة الى، فاكتبى لى ، وسألبى طلبك ، وأجىء اليك .. اعدك بذلك ،

وسأسافر — بعد يومين أو ثلاثة — الى ايطاليا فاكتبى اذا أردت بعنوان : « شارع فريدلند ، رقم (٦١) بباريس » وسيحول الخطاب الى أينما أكون ..

وأمسكت المرأة بيدى روبير ، وقبل أن يتمكن من سحبهما، رفعتهما الى شفتيها وقبلتهما ..

وبعد ساعات ، كان لويس وكاميل قد غادرا مدينة (نيس) .

— ٣ —

— **ولكن** أرجو يا والدى ألا تمس « الغابة العذراء » بسوء ، أو تغير معالمها !

كان الدكتور جوفر قد احترم هذه الرغبة التى ابداها « لويس » ، وهو يطل من نافذة القطار ، فى اللحظة التى كان يغادر فيها (تونيان) مع عروسه ، فى طريقهما الى (نيس) .. ولكن الحشائش بدأت تتكاثر ، بعد ان مر صيف كامل وخريف كامل ، وأخذت ممرات الحديقة فى الاختفاء ، كما بدأت الاغصان تتشابك فى أعلى الاشجار .

وفى اليوم الذى وصلت فيه كاميل الى (تونيان) معزوجها، كان المطر يتساقط بشدة ، فأخذ الزوجان يتأملان المدينة الحزينة ، الضباب المتكاثف فوق النهر ، وهما يجلسان فى غرفة الطعام .. ما أطول الاعوام التى مرت منذ كانا طفلين يلعبان فى الحديقة ، فتبلل أمطار الخريف ملابسهما كما تبلل الغابة العذراء .. لقد كانا يسرعان — اذ ذاك — الى الاحتماء بغرف المنزل نفسه — الغرف التى كانت مهجورة اذ ذاك — وهما يضحكان ، والمياه تقطر من ثيابهما .. أما اليوم، وقد أصبح كل منهما ملكا للآخر لايكاد يفترق عنه ، فقد أخذا يستعيدان الماضى وهما يذكران له فضله فى جمع

شملهما .. وتصاعدت آهة ارتياح من قلبيهما الى شفاهما، ثم تبادلا قبلة هادئة رزينة، أمام تلك الطبيعةالمنهمرةالدموع !

آه ! .. كم كان لذيذا أن تستمر الحياة الساكنة فى المنزل الجديد ! .. لقد كانا أشبه بالطيور الرحالة حين تلتقى عند زاوية جدار ، أو فوق مكان مرتفع ، ثم تبدأ فى بناء عشها من جديد ! .. آه ، كم كان لذيذا أن تغلق الابواب على السعادة المشتركة ، عندما تشتبك الأيدى – بالقرب من النار التى توشك أن تخمد – وتقترب الاقدام بعضها من بعض ، وينظر كل من الحبيبين فى عينى الآخر ، وهما يفكران فى المستقبل ، وقد هجع أهل المنزل ، وساد السكون فى الداخل ، لا يعكره سوى استمرار صوت سقوط الامطار وصوت أغصان الاشجار وهى تتحرك بفعل الرياح ، فى الخارج .

وطابت لهما الحياة الجديدة .. وكانا – فى كل صباح – يهرعان لتقبيل الطبيب الشيخ المقيم فى المنزل المجاور ، عندما يلتقط عصاه ويستعد للخروج .. وبين أحضان ذلك السلام والهدوء ، كانت المدينة مستكينة ، لاتأبه لهما ولا تهتم بهما .. وكانا يقابلان أحيانا بعض الاصدقاء ، فيتحدثان عنهم فى المساء .. وتقول كاميل : « أليست مارت بديعة ؟ .. انها بسيطة ، سعيدة بمركزها المتواضع الى درجة كبيرة، مع أنها كانت تحلم بمستقبل سياسى عظيم لزوجها ! » .. فيقول لويس وهو يداعب أصابع زوجته : « ان مارت محقة فى قناعتها ياحبيبتى ، اذ ما الذى تجنيه لو أنها أثارت روح الطمع فى نفس زوجها دلكومب ؟ .. يجب أن ينسى الانسان المال اذا حصل على السعادة .. هل تظنين أننى أحلم الآن بالشهرة ، كما كنت أحلم بها احيانا فى فترة الدراسة ؟ .. لقد شرعت – اذ ذاك – فى وضع كتاب تاريخ فلورنسا ، ثم أهملته بعد ذلك .. » !

وتنحنى كاميل على عنقه لكى تطبع قبلة طويلة، شكرا له على تلك الكلمات ..

كانت سعيدة حقا هى الاخرى، فقد وضعت حياتها كزوجة محبوبة ستارا أخفى كل الحوادث المروعة التى مرت بها، كما تخفى مياه البركة جثة ميت استقرت فى القاع .. يالهذه القدرة الغريبة الفائقة على النسيان، يهبها الحب لكل النساء ! .. لقد قبلت ـ دون اعتراض أو احتجاج ـ احترام زوجها لأمومتها، ولم تعد تشعر بالرعب اذا وقعت عينا لويس على عينيها . أما أمام والدها جوفر، فكانت تشعر بشدة الحرج، لاسيما حين يسألها عن حالتها الصحية .. فكانت تضطرب، وكان الخوف من أن يستنتج كل شىء عن أمرها، يجعلها تكرر تأكيداتها بأنها بخير، وتلح فى انكار أى تعب، بدرجة كانت كفيلة بأن تثير الشبهات فى نفس ذلك الشيخ .. ولذلك كانت تقلل من رؤيته قدر استطاعتها، حتى اذا اختلت بزوجها، لم تعد تخاف شيئا .. أفلم تكن أمامها ذراعاه المفتوحتان، تحتمى بينهما من كل شىء ؟ ..

وليست هناك عواطف جامحة تعترض المعيشة الهادئة فى مدن الريف . فمثل هذه العواطف تتبخر بين العواطف الأخرى الهادئة الشائعة بين الجميع .. والقلب هناك تبطىء ضرباته كما تهدأ الاعصاب .. ويبدو الوقت وكأنما ازداد طولا ..

***

ووقع حادث كان كفيلا باثارة القلق فى نفس كاميل لو انها كانت على شىء من الدقة، ولكنها اكتفت بابداء العجب، دون أن تضطرب . فقد ذهب « جان » الخادم يقص على سيده ـ وهو شديد الاضطراب ـ كيف ضبط شخصا غريبا بالقرب

من حاجز الحديقة ، كان يحاول أن يتطلع الى داخل المنزل . وأتم الخادم قصته قائلا : « ولما اقتربت منه ، أسرع بالهرب، فوقع منه شيء أثناء عدوه ! » .. وكان ذلك الشيء منظارا مكبرا ، من ذلك النوع الذى يستعمل فى المسارح لتقريب المناظر .

وقال لويس : « يا له من لص غريب ، يترك ما يخصه بدلا من أن يأخذ ما يخص غيره ! .. ولكن ألم تر وجهه ؟»

ـ أرجو أن تلتمس لى العذر يا سيدى، لأنه اسرع بالهرب، ولم يكن الضوء كافيا ليبين شكله..على أنه يشبه «لارتيج» الصغير التاجر بميدان نوتردام !

وفكرت كاميل فى نفسها قائلة : « لعل الشاب لا يزال معجبا بى ، وأراد أن يرانى بعد أن امتنعت عن الخروج ، فجاء الى هنا ! » .. ولم يغضبها أن تسمع بتلك التحية توجه لجمالها ، كما ان الحادث لم يتكرر بعد ذلك ، ولا ظهر من يطالب بالمنظار ، فلم يعد أحد يفكر فى الحادث بعد ذلك ..

واستمرت الامطار تهطل طول شهر ديسمبر ، كما كان الجو كثير التقلب : فمن رياح شديدة ، الى ضباب ، الى برق .. وفى مثل هذا الجو ، كان من المستحيل القيام بأية نزهة فى الخارج ، ولذلك كانت كاميل تقضى أيامها بالمنزل . واعتادت « مارت دلكومب » أن تلازمها كل مساء .. وكانت مارت سعيدة، بعد أن ايقنت من حالتها الصحية أنها ستصبح أما هى الاخرى .. فقد كانت شديدة الشوق الى هذه الامومة ، التى لم تظهر بوادرها عندها الا بعد انقضاء ستة اشهر من الزواج . وكانت تقول بسذاجة : « هذا على الرغم من أننا ـ انا وبول ـ بذلنا اقصى الجهد ! »

وكانت الاثنتان تشعران بالسرور ، وهما تعدان اللفافات الخاصة بالمولودين المنتظرين .. أن هذه اللفافات مصدر

لذة عظيمة لكل نساء الريف ، وهن يقتربن من موعد الوضع .
وكانت مدام « بوريس » تتردد - من وقت لآخر - لزيارة كاميل ، تصحبها ابنتها « جان » الهزيلة ، التى لم تتزوج .
وكذلك كان يزورها « ديسبيرو » ، « واسكادافال » الخجول .. وكان هناك زائر رشيق مهذب آخر ، اعتاد يحضر بانتظام فى أيام الثلاثاء والخميس والسبت من كل اسبوع ، وهو يحمل معه - دائما - بعض الزهور ، على الرغم من تنوع الفصول .. ولم يكن هذا الزائر سوى الثرى « هنرى روكبيكيه » ، الذى كان قد عاد الى (تونيان) ، وطرق باب آل « دلكومب » ، وأخذ - عن طريق مارت وزوجها - يسعى ، حتى تمكن من أن يلج منزل آل لوت ، وان يزور لويس وكاميل .. وكانت تلك الزيارات تضايقه فى بادىء الامر ، لان وجود الزوج كان يقيد من حريته . الا أن لويس كان يرحب به ، ويقول لزوجته : « لماذا أحقد على هذا الشاب ؟ .. لقد رآك جميلة ، فأراد أن يتزوج ، اثناء غيابى .. فأى جرم فى هذا ؟ .. اننى - على النقيض - مدين له ببعض سعادتى ، فقد كان فى امكانه أن يأخذك ، ولكنه تركك لى ! »

وما لبث البشر أن عاد الى الثرى ، ولم تنقض ثمانية أيام - من بدء زياراته - حتى كان يخاطب لويس بقوله : « صديقى العزيز .. عزيزى لوت » .. وكان يجد متعة كبيرة فى الجلوس أمام السيدتين - كاميل و مارت - وهما منهمكتان بحياكة الملابس الصغيرة ، يحف بهما عبير الاقمشة الجديد . وكان يحاول أن يجتذب عطفهما بطريقة خفية ، اذ كان يمزح أحاديثه بذكرى الايام التى قضاها فى باريس ، وحوادثها وحوادث الحى الذى كان يقطنه . وكان وصفه ممتلئا بالكلمات الغريبة ، التى يتجلى فيها الاحتقار لتلك الحياة الرتيبة . وكثيرا ما كان يختم حديثه قائلا بنبرات حزينة :

ـ انكما لتريان أنه كان فى امكانى ان أعبث هناك وألهو كما أريد، ولكن كان يضايقنى كثيرا أن أحرم من رؤية الريف! .. وقد يكون الجو رديئا جدا اليوم . أليس كذلك ؟ ولكننى أفضل هذا المطر ـ وأنا أعيش هنا فى قصرى ـ على الشمس التى تشرق فى غرفتى بشارع (كجاس) بباريس . ولـذا فقـد عدت بمجرد أن سمحت لى والدتى بذلك .

أما ما كان يغفـل ذكره ، فهو أن والدته لم تسـمح له بالعودة الى (تونيان) ، الا بعد أن تزوجت كاميل . وكان هو ـ على الاقل ـ يعرف أن هذا هو السبب المباشر . على أن ثمة سببا آخر لم يدركه فى مبدأ الامر ، وان لم يلبث أن عرفه فيما بعد.. ففى اليوم الثالث من شهر يناير ، وصل الى منزل آل لوت مبكرا عن موعده ، فى اللحظة التى انتهى الزوجان فيها من تناول طعامهما . وكان يتحرق شوقا الى الكلام ، وأراد أن يقول كل ما عنـده مرة واحدة، فرحبا به ، وقدما له قـدحا من القهوة .. وبدأ يتكلم ، فقـال : « آه ، ايها الصديقان ! .. اننى فى مركز حرج ، فان أمي تريد أن تزوجنى الآن .. لقد كانت العجوز تخفى عنى سرها، فلم أشـك فى نواياها قط .. ولكنها ستعرف أننى لست سلس القياد الى هذه الدرجة .. انها لم توافق على زواجى، عند ما كنت ارجوه .. اما الآن ، فانها تريد أن تزوجنى ، برغم اننى لا اريد ! »

فسـأله لويس وهو يبتسم : « وبمن تريد والدتك أن تزوجك ؟ » . وبادر روكبيكيه مجيبا :

ـ هه ! .. من فتاة لا تعرفها يا عزيزى .. فتاة حدباء! .. « لافاليت » الصغيرة .. انها احدى قريباتى ، وقـد أوتيت حظا كبيرا من الدمامة، فجسمها أشبه بجسم الطائر ، كما أن ساقيها مثل سيقان هذه المائدة !.. بهذه الفتاة تريد



وظلت عند قدمى الشاب ـ الذى عاد الى مقعده ـ
وهى ترتعد ، والدموع تنهمر من عينيها .. (ص ١٧٤)

أمى أن تزوجنى ، دون أن تسألنى رأيى .. وهى تتعجل الموضوع ، ولو اطعتها اليوم لتم الزواج غدا ! »

فسألته كاميل بخبث المرأة التى تكن دائما بعض الحقد نحو الرجل الذى ضحى بها من أجل مصلحة مالية : « ولكن قريبتك هذه غنية ولا ريب ؟ » . فقال وهو بادى التفكير : « أجل .. هى غنية جدا ، فلديها قصور وأراض واسعة » .. ووقف أمام النافذة يشير بذراعيه ليبين موقع الاملاك الواسعة ، ثم ظل بضع دقائق يفكر ، وهو يرسل بصره فى كل تلك الارض التى ارادوا أن يجعلوه سيدا عليها .. ثم قال وهو يعود الى الجلوس : « ثم انها تمتلك ذهبا كثيرا ، جمعه والدها حين كان يتجر فى الخمور .. لقد جمع ذلك الكهل تلالا من الذهب ، وكان رجلا بخيلا ، حتى ان ابنته لا ترتدى غير الملابس القديمة التى كانت ترتديها أمها .. انها تشبه المتسولات ، وقد اعتاد أن يتركها طوال يومها فى الطرقات ، لكى تعبث مع صغار الاولاد من رعاة الاغنام ! »

وخفض من صوته وقال : « وفوق هذا ، فقد وقع لها حادث ، وهى بعد فى الخامسة عشرة من عمرها .. حادث قذر ، لا أعرف تفصيلاته ، اذ رفضت والدتى أن ترويها لى . ولكنى علمت ــ بوجه عام ــ انها ارتكبت ذنبا مع أحد المزارعين .. ولعلكما تدركان ما أرمى اليه .. وكان شابا جميلا ! .. وقد ألحقت الفتاة ــ بعد ذلك ــ بمدرسة داخلية ، ويقال انها كانت تعتدى على الراهبات هناك ! » .

فهتف لويس : « يا للشيطان ! .. من الصواب ــ اذن ــ أن تتريث قبل أن تمضى فى هذا الزواج ! »

ــ هه ؟ ! .. اننى لا أتريث فقط يا صديقى ، بل اننى أرفض .. أتظن اننى أرضى بفضلات الفلاحين .. بفتاة

حدباء ، سيئة الخلق ؟ .. انها تذيق والدها كل أنواع العذاب ، منتهزة فرصة الشلل الذى أصاب نصف جسمه ! .. يا للشيخ المسكين ! انها تتركه يتمرغ فى أقذاره ! .. فهل أتزوج بفتاة مثل هذه ، فتجعلنى سخرية فى نظر الناس ؟

فقالت كاميل : « ولكن .. اذا لم تتزوج من قريبتك هذه، فانها لن تعدم زوجا آخر بكل سهولة ، ما دامت على هذه الدرجة من الثراء . أفلا يمكن أن تغض النظر عن بعض العيوب أمام ثروة الآنسة لافاليت ؟ » .. فنهض روكبيكيه ، وتناول قبعته قائلا : « لا ! .. انك تعرفين ، يا مدام لوت ، أننى لا أهتم بالمال . فماذا يعود على من زيادة املاكى ؟ .. ان عندى الكفاية ، وفى امكانى أن أقضى يوما كاملا فى الصيد متنقلا بين أملاكى الخاصة ، لا أخرج من نطاقها ، لفرط اتساعها ! »

***

وخرج روكبيكيه ، فلم يره أحد ــ مدة أسبوع كامل ــ فى مدينة (تونيان). وظل الاصدقاء «ديسبيرو » و «اسكادافال» و « بوريس » ينتظرونه عبثا ، بعد ظهر كل يوم بالنادى ، حتى أخذوا يتساءلون : « ترى ما الذى أصاب السيد ؟ .. ايكون المسكين مريضا ؟ »

وتواعدوا على أن يذهبوا لزيارته فى اليوم التالى .. وحين ذهبوا اليه ، لم يجدوه مريضا، بل كان منغمسا فى مناقشات مستمرة ــ مع والدته ــ حول موضوع الآنسة « لافاليت »، التى كانت تريدها زوجا له . ولم يكن من السهل اقناع مدام روكبيكيه بالعدول عن رأيها .. كانت عجوزا عنيدة ، لا تكاد تغادر منزلها ، ولا تستقبل الا عددا قليلا من الزائرين ، لأنها كانت تسىء الى كل من يزورها . وما كانت

تحب غير ابنها الذى رزقت به فى سن متأخرة . وقد كان من جراء افراطها فى حبه ، أن أفسدت حياتها الزوجية .. ووضعت نصب عينيها غرضا واحدا ، هو أن تجعل ابنها هنرى روكبيكيه غنيا جدا . ولم يمنعها حبها العظيم لولدها من أن تدرك انه على جانب كبير من الحمق ، وانه عاجزعن التصرف بمفرده ، ولذلك كانت تعامله بقسوة وتظهر له الحدة والغضب ، وتهدده حتى يخضع لرغباتها .. وكانت هذه الوسيلة تنجح معه دائما !

قالت له : « اذن ، فأنت لا تريد أن تنفذ رغبتى ؟ » . فأجابها فى فورة الحماس : « كلا ! »

ــ حسنا يا ولدى ، اذهب الى حيث تريد ، فلست أقوى على أن أعيش مع ابن لا يطيع أوامرى .

وحاول « الولد » ــ مرتين أو ثلاث مرات ــ أن يغير من رأيها الاخير .. وفى اليوم التالى ، كان تفكيره قد هداه الى الرأى الصواب ، ففهم أن ثورته لا جدوى منها ، وان والدته لا تتصرف بهذا الشكل الا من أجل نفعه وخيره . وبعد ، أفليست هى على حق دائما ؟ .. اذ ذاك ذهب يسعى الى أمه العجوز ، كالتلميذ النادم على ما بدر منه ، فوجدها تتجول فى القصر ، لكى تراقب الطاهية وتتشاجر مع البستانى . فلما مد اليها جبهته على طريقته الخاصة ، قبلته بشفتيها الجافتين ، وهى تقول له :

ــ حسنا ، حسنا !.. أن الليل قد أعاد اليك صوابك ، ولازلت ترغب فى شرب الشكولاته ، وامتطاء جواد والدك ؟

ثم أردفت بصوتها الاجش ، فقالت هذه الكلمات التى جعلت السيد يرتجف : « كنت قد أمرت الخادم كاديشون بأن يبيع جوادك ، فاذهب واطلب منه الا ينفذ ذلك ! » ..

وكانت والدة روكبيكيه قد فكرت فى مشروع هذا الزواج من زمن بعيد ، اذ كان فى نظرها وسيلة لتوسيع املاكه — التى ظلت على حالها منذ وفاة زوجها — ولكى يصبح ابنها أغنى أغنياء المقاطعة .. وهكذا خضع روكبيكيه لرغبة أمه ، ولم يجد بدا من الزواج بتلك الحدباء .. الا انه كان يخشى سخرية الناس ، وقد اعترف لوالدته بأن هذا كان السبب الرئيسى لمعارضته، فدقت العجوز يدا بيد، وصاحت: «آه كان يجب أن تذكر ذلك.. انك تخشى أن يسخروا منك يا سيدى .. ومن هذا الذى يجرؤ على السخرية منك ؟ » .. وسكتت لحظة ، ثم استطردت تقول : « أصدقاء تونيان بلا شك ؟ .. يا لهم من زملاء ظرفاء ! .. أهو « دسبيرو » الذى يكاد يقبل قدميك كى يحتفظ بصداقتك ، أم هو « بوريس » الذى يريد أن يزوجك بابنته ، أم اسكادافال الذى أرجو الا يتحدث عن زوجات الناس لأن زوجته تخونه أكثر من أية امرأة اخرى ؟ ! .. هه ! ايها الاحمق ! .. عندما تقول لهم : سأتزوج من الآنسة لافاليت التى تملك نصف مليون من الفرنكات عدا الاراضى ، سيغضون انظارهم خجلا ، وسيزدادون احتراما لك ! »

واقتنع روكبيكيه بهذا الرد .. وفى ذات مساء — بعد أيام قلائل — بينما كان الاصدقاء الثلاثة يجلسون بالنادى — حوالى الساعة التاسعة — وقد غلبهم النعاس، اذ سمعوا فجأة وقع أقدام .. وما لبث صوت صديقهم روكبيكيه أن ظهر فى الردهه وهو يقول : « يالله ! .. انكم تنامون هنا منذ امتنعت عن الحضور ؟ » .. واستيقظ بوريس واسكادافال وديسبيرو ، وصاحوا وقد أحاطوا بصديقهم : «آه ، السيد ! .. ماذا حدث لك أيها المسكين طوال الفترة الماضية ؟ » .. « هل سافرت ؟ » .. « هل قضيت نحبك ؟ »

وألقى عليهم روكبيكيه نظرة جامعة ، تجلى فيها فخره بثروته العظيمة ، ثم قال : « لم أسافر ، ولم امت .. وكل ماهنـاك – يا أولادى – هو أننى قـررت الزواج ! » .. فتبادل الاصدقاء الثلاثة نظرة تدل على القلق ، وقد حاروا فيما يجب أن يظهر على وجوههم من مشاعر .. الا أن هنرى روكبيكيه تابع حديثه فقال : «ألم أذكر لكم ذلك قبل الآن؟.. لقد حدثتكم عنه ، تذكروا !.. انها ابنة لافاليت، قريبتى.. وقد أصبحنا خطيبين .. انظروا ! »

ومد يده اليمنى ، فظهر خاتم ذهبى يلمع حول اصبعه . وسارع يستغل الحجة التى استعملتها معه أمه ، فقال لهم : « ان لديهـا مليـونا ونصف من الفرنكـات ، يا أعزائى ، وستمنحنى والدتى مبلغ خمسمائة الف فرنك ، فيـكون المجموع مليونين من الفرنكات ، وهو مبلغ لا بأس به ، يكفى لمصاريف المنزل ، أليس كذلك ؟ »

وقال «ديسبيرو» وقد ظهر الحسد فى عينيه : « مليونان؟ .. انهما شىء يذكر ! » .. ولهث بوريس دون أن يقوى على الكلام .. وراح اسكادافال يعض على نواجذه ، وهو يقول : «مليونان ! مليونان !».. وكان المليونان شيئا يذكر فى الحقيقة ، بل انهما كانا مبلغا كبيرا .. كانا ثروة وحيدة فى نوعها فى ذلك الاقليم الذى لم يكن يضم غير الذين حل بهم الفقر بعد أن قضت أمراض الارض والتربة على ثرواتهم فى السنوات الاخيرة ..

وكان ثمة سكوت طويل ، قطعه « ديسبيرو » الذى اراد أن يحرج السيد كما أحرجهم هو – فقال : « وهل تحب قريبتك هـذه .. على الاقل ؟ » . فقال روكبيكيه : « أجل .. كما يجب أن يحب المرء زوجته ! .. من المؤكد أن هناك فتيات كثيرات اجمل منها ، ولكن ليس من المهم أن يتزوج الانسان من فينوس الهة الجمال ! »

وجلس روكبيكيه بدوره ، وطرق المائدة بعصاه أولا ، ثم طرق بطن « اسكادافال » ، وقال وقد أغرق فى الضحك : « وها أنت ترى يا صديقى أنه لن يمكنك بعد الآن أن تداعبنى بسخريتك ! » ..

***

وبعد أن شرب علقم التضحية وهضمه ، لم يبق على «روكبيكيه» الا أنه ينعم بالثراء . وكان اهتمامه بهذا النعيم – نعيم الثروة – أكثر من اهتمامه بنعيم الحب .. ولم يكن الناس يرون غيره فى شوارع (تونيان) ، اذ انهمك فى اعداد المنزل الذى سيسكنه .. كان الناس لا يرون غير «السيد» ببطنه المنتفخة، ورأسه الشامخ، ومشيته المتباطئة .. فكانوا يتخيلون اذا رأوه أنهم يرون مليونين من الفرنكات يتحركان. وكان الرجل على حق فى زهوه ، فقد اختلفت نظرة الناس اليه منذ أعلنت خطوبته، وأصبح ظهوره فى شارع المدينة الرئيسى يثير فى نفوسهم الاعجاب والاهتمام .. وكان يلذ له أن يرقب الشفاه وهى تنفرج عن الكلمة الساحرة : «مليونان» .. لقد مرت به – فى ذلك العهد – فترة شعر فيها بالرضاء الكامل عن نفسه .. فكان يمتطى جواده فى كل صباح ، ويذهب لتناول طعامه فى قصر « مونتريج » . ولا ريب أنه كان يذهب الى هناك ليجتذب اليه قلب الحدباء . وكان كلما ازداد اتصالا بها ، خيل اليه انها أقل قبحا ، اذ كان – فى كل مرة – يكتشف شيئا جديدا يثير اعجابه فى ذلك القصر ، وفى تلك الاراضى التى كان مقدرا أن تصبح ملكه .

وعند عودته ، كان يشعر برغبة شديدة فى أن يروى للناس أخبار سعادته ، فكان يتوقف عند منزل آل دلكومب أو آل لوت، ويقول : «آه لو رأيت سرداب القصر يا صديقى !..

فان مابه من النبيـذ يقدر بمائة الف من الفرنـكات ! .. ان به كل ماتمكن « لافاليت » الشيخ من جمعه خلال ثلاثين عاما ، ولم يمسه أحد منـذ أصيب الرجل بالشـلل . أن الصغيرة التى سأتزوجها ، تقدم لابيها على المائدة نبيذا من النوع الرخيص ، ضنا بما فى السرداب .. لا ريب ان كل هذه الثروة سترقص عند ما أصبح سيدها ! »

وأخذ روكبيكيه يلح على بول ولويس لكى يشـهدا مع زوجتيهما الحفلة الراقصة ، التى تقرر أن تقـام فى قصر « مونتريج » بمناسبة عقد القران . الا أن الـكاهن « بول دلكومب » كان يتجنب الاشتراك فى تلك الحفلات العامة ، كما أن مارت كانت فى الشـهور الاولى من الحمل ، ومن ثم فانه رفض أن يتركها وحـدها فى (تونيـان) ، وأراد أن يجنبها متاعب رحلة تستغرق ستة عشر كيلو مترا فى العربة ذهابا وايابا .. أما كاميل ، فقـد رفضت أن تشـهد حفل زواج الرجل الذى تقدم للزواج منها يوما ، ولكنها حرضت لويس على الذهاب، يدفعها حب الاستطلاع الفريزى. فراحت تقول له : «أذهب يالويس ارجوك أن تذهب، لكى تقص على نبأ الحدباء ووالدها وأم روكبيكيه .. لا ريب أن شـكلهم سيكون مضحكا غريبا ! »

وتهرب لويس من قبول الدعوة، اذ كان معتزما أن يسافر فى اليوم التالى للزواج الى مدينة (سان فلورى) ، حيث طلب أحد المهندسين استشارته فى مسائل فنية. وحدث فى اليوم السـابق للحفلة ، ان قدم روكبيكيه فجأة ــ ولويس يعد الترتيبات الاخيرة لسفره ــ وراح يلحف فى الرجاء ، طالبا منه الحضـور ، قائلا انه سيشـعر بحزن شـديد اذا لم يشـهد صديقه «لوت» حفلته . وقال له : « انك ترى ياعزيزى أننى اهتم بحضورك أكثر من اى شخص آخر

.. دعنى أثبت لهؤلاء الفلاحين أننى اعرف رجلا له قيمته .. رجلا باريسيا ! »

وحاول لويس ان يعتذر مرة أخرى، ولكنه تبين أن رفضه سيسبب الما شديدا للشاب ، فوافق وهو يقول : « ليكن ، مادام فى ذلك سعادتك يا سيد روكبيكيه » .. ولم يتمالك « السيد » نفسه من السرور ، فقبل لويس .

— ٤ —

ـ كم بقى من الكيلو مترات يا « بورداو » ؟

ـ بقى خمسة على الاقل يا سيد لوت ، ولكننا لن نتمكن من الصعود الى قصر « مونتريج » الا على أقدامنا ..

كانت العربة ـ التى استأجرها لويس لتحمله الى قصر آل لافاليت ـ تسير على مهل، يجرها جواد صغير يلهث تعبا وهو يعرج منذ نصف ساعة .. وكان فصل الامطار قد انتهى ، والجو صافيا ، صحوا ، كأنه ذكرى الربيع فى الاسابيع الاخيرة من الشتاء .. ان المرء ليشعر بلذة عظيمة ، وراحة مطلقة ، فى مثل هذا الوقت من الفصل .. وقد شعر لويس بذلك فعلا ، فأخذ ينقل بصره بين السماء التى تناثرت فيها النجوم ، و بين تلك الاضواء الضعيفة التى كانت تظهر وتختفى .. أضواء (تونيان) ، المدينة الهاجعة فى الوادى ، والتى كانت تضم « كاميل » ..

وفكر لويس فى نفسه قائلا : « الساعة التاسعة الآن ، ولابد ان كاميل تستعد للنوم ! » .. وراح يتمثلها أمامه نصف عارية .. كم من مرة ـ فى مثل هذه الساعة ـ وضع شفتيه على عنقها وعلى ذراعيها .. واخذ يحاول ان يحلل ذلك الاتصال ، فوجد فيه شيئا فوق الرغبة .. وجد

فيه شيئا من التقوى والعبادة ، يماثل شعور بعض المتبتلين حين يقبلون ايقوناتهم وتماثيلهم فى خشوع ..

وعند منحنى الطريق، ظهر الوادى، وبدا قصر «مونتريج» تحيط به الانوار المتلألئة ، وعربات المدعوين تتقاطر عليه من القصور والقرى المجاورة . وأخذ لويس يتأمل تلك العربات والانوار ، حتى وقفت به العربة – فى النهاية – أمام قصر « مونتريج » .. وكانت القاعات قد غصت بالمدعوين حين دخل . وأخذ يتطلع فى وجوه الحاضرين ، عله يجد بينهم صديقا ، ولكنه لم يوفق .. وكان قد حيا – بالقرب من الباب – سيدة صغيرة على وجهها امارات الضعف ، فردت عليه تحيته الباريسية بفتور . وكان الى جانبها كهل يجلس مستندا بيديه على ذراعى مقعده ، وهو يرقب ذلك الجمع الغريب .. وأقبل على لويس شاب انيق ، قد ارتدى ثياب السهرة – وزهرة بيضاء فى عروة سترته – وارتمى عليه حتى شعر لويس بأنه يوشك أن يقع .. وكان ذلك هو السيد روكبيكيه ، وقد أشرق وجهه . وصاح يحيى لويس :

– آه ياعزيزى لوت !.. ان حضورك دليل على شدة لطفك .. كدت أعتقد انك لن تحضر ، مع اننى فى حاجة شديدة اليك . هل تصدق أن بوريس واسكادافال وزوجتيهما لم يحضروا بعد . انك لم تتعرف الى « زوجتى » بعد ، أليس كذلك ؟ .. تعال اعرفك بها !

وقاده نحو الحدباء الصغيرة ، التى كانت تقف بالقرب من الباب .. وكانت فرقة الموسيقى قد بدأت العزف ، وقال روكبيكيه : «صغيرتى بولين، اننى أقدم لك المسيو لوت، وهو باريسى أصيل ، وعالم جدا .. لقد حدثتك عنه مرارا .. أقدم لك زوجتى يا عزيزى لوت ! »

وكانت مدموازيل « لافاليت » قد سمعت روكبيكيه يحدثها ـ أكثر من مرة ـ عن لويس ، فأشرق وجهها ، وانفرجت أساريرها ، ثم ضغطت على يده ، وتبادلت معه بعض عبارات عن باريس ـ التى لم تكن تعرفها ـ وعن الريف الذى كانت تكرهه . وكانت الحقائق تخرج من فمها ببساطة . وقبل أن يفارقها الشاب ، قدمته الى والدها الذى مد اليه يده بمجهود كبير ، وتمتم بضع كلمات غير واضحة ، ثم عاد الى سكونه من جديد .

وكان لويس قد ذهب الى الحفلة وهو عازم على عدم الرقص ، وعلى البقاء فترة قصيرة ، وعدم التعرف الا بأقل عدد ممكن من الناس . ولكنه لم يحسب حساب صديقه « روكبيكيه » ، الذى أخذ يضيق الخناق عليه ، ويقول له : « انك تريد أن اقدمك للمدعوين ، أليس كذلك ؟ .. هنا بضع سيدات بارعات الجمال ، يطلن اليك النظر ، تقدم! » .. وراح يستدرجه ـ وهو فخور به ـ حتى قاده الى حلقة الرقص ، وقال : « أقدم اليكم صديقى لوت، خريج مدرس الهندسة .. وهو بئر مليئة بالعلوم .. أنه باريسى من باريس ! »

وتركه لويس يقدمه الى المدعوين ، وراح يحيى من كان يقدم اليهم ببضع كلمات مناسبة .. وكانت معظم السيدات من الجميلات ، الا أن ملابسهن البسيطة كانت تدل على العسر المالى الذى كان يخيم على المقاطعة . ودهش لويس لمنظر فقراء الرجال وهم يدفعون الاغنياء بمناكبهم ، دون اهتمام أو مبالاة .. وضمت الحفلة كذلك بعض الطلبة من أقارب العروسين ، فأخذ لويس يراقب واحدا من هؤلاء ، وقد انحنى على أذن احدى السيدات يقص عليها ما جعلها تغرق فى الضحك من وراء مروحتها ..

وما لبث بوريس ان وصل ، تتبعه زوجته وابنته «جان» ، التى بدت أشد هزالا فى ملابسها الجديدة .. وتبعهم اسكادافال بجسمه الضخم ، والى جانبه زوجته الصغيرة ، وقال بوريس بصوت مرتفع : « لكم تحيتى .. تحيتى يامدام روكبيكيه ، وأنت يا سيدى والد العروس ! .. تصوروا أن سائق العربة ضل الطريق ، وأخذ يوهمنا أنه سيصل عن طريق مختصر » .. ثم داعب الرجل المريض ـ والد العروس ـ بأن وضع يده على بطنه ، فصاح الرجل صيحة ألم .. ونظرت اليه الآنسة لافاليت نظرة تصحبها ابتسامة حادة ، كان معناها : « اما أنت ياصديقى ، فلن تدخل منزلى بعد أن يتم زواجى » ! ..

لكن بوريس لم يحفل ، واستمر يقص كيف ضلوا الطريق ، واسكادافال يؤيده فى أقواله من وقت لآخر ، فيرتفع صوته على الموسيقى .. وتركه لويس يقص قصته ،وغادر القاعات المكتظة بالناس ، لكى يتحاشى الاتصال بأحد .. وكان الجو قد أصبح خانقا . ولما كان الفصل لا يزال شتاء ، فان النار كانت تتأجج فى المدافىء ، برغم أنهم حاولوا اطفاءها .. ووقف لويس أمام غرفة اللعب ، الا أن الدخان المتصاعد فى جوها منعه من دخولها . وكان بعض الرجال قد خرجوا الى الحديقة لتدخين لفافات التبغ .. وجازفت بعض النساء بالخروج أيضا ، الا أن برد الليل جعلهن يشعرن بالبرودة تسرى الى أكتافهن ، فعدن ـ فى الحال ـ الى الداخل ..

***

وتناول لويس معطفه ، وأوقد لفافة ، ثم خرج الى الحديقة .. ثم واصل سيره حتى خرج منها . وكان القصر يقع فوق ربوة واسعة ، فأطل لويس على الوادى الفسيح المنبسط

أمامه ، يغمره الظلام السائد باستثناء أنوار ضعيفة هى أنوار مدينة (تونيان) .. وأطال لويس النظر ، وقد اتجه قلبه مع فكره ، يسعيان الى تلك المرأة المعبودة النائمة فى منزل بعيد ، من تلك المنازل التى كان الظلام يلفها .. ثم عاد الى الحديقة ، فتطلع الى النوافذ ، وأخذ يراقب المشتركين فى الرقص وهم يتحركون كالاشباح ، تقودهم الموسيقى المحتجبة عن نظره . وأخذت الضجة والاصوات تزعج الشاب وتضايقه ، وشعر ـ ككل عاشق مخلص ـ بحاجة الى الوحدة التامة ، حيث يستعرض المرء كل سعادة ماضية ، وحيث يطلق فكره مستعرضا مراحل الحب ، واحدة اثر أخرى .. وسار وحده فى ممر مظلم ، وقد نسى نفسه وفى أى مكان هو .. وتلاشى من ذهنه روكبيكيه وبوريس ومدموازيل لافاليت ، ولم يعد يفكر الا فى زوجته ، وقد طغا حبه لها وتأجج .

ولما توغل فى الممر ، شعر بظلام الليل يغمره تماما ، وأحس بالهدوء التام ، ولم تعد الاصوات المنبعثة من القصر تصل اليه . ولم يكن يقطع ذلك السكون غير صوت الفروع الذابلة التى سقطت عن الشجر ، وهى تتقصف تحت رجليه .. ومن وقت لآخر ، كان يضع سيجاره فى فمه ليدخنه ، فتتوهج الشعلة الصغيرة ، وترسل ضوءا ضعيفا فى ذلك الظلام الدامس . وانحنى الممر الذى كان يسير فيه ، فتابع المشى مسافة أخرى ـ فى الظلام الذى ألفته عيناه ـ دون أن يدرى له وجهة ، اذ راحت تقوده الغريزة ، دون ان يهتم بالطريق الذى يسلكه .. كان يفكر فى كاميل النائمة ، ويتخيلها وهى فى فراشهما .. كم من ساعات كاملة قضاها فى التطلع اليها ، وهى فى تلك الحال ، وقد انحسر الرداء عن كتفيها ، وبدا شىء من الشحوب على وجهها ، وارتفع

الفطاء عند صدرها . وتخيلها أمامه فى هذه اللحظة بشفتيها المفريتين ، وقد انفرجتا قليلا ، فبانت أسنانها البيضاء . وقال الرجل بصوت مرتفع، كأنه يخاطب الاشجار الصامتة : « كم أحبها !.. كم أحبها ! »

وحين خطر بباله أنه مضطر الى البعد عن تلك المعبودة فى الفد ، والافتراق عنها بضعة أيام ، سرت الرعدة فى جسمه سريان السم .. أيفارقها دون باعث قوى ، اللهم الا بضع مصالح مادية ماكان ينبغى أن يهتم بها أقل اهتمام ؟.. الا أنه مالبث ان قال فى نفسه : « يجب ان ازداد غنى . من اجلها هى على الاقل ، ومن اجل الطفل القادم » !

الطفل .. لم يكن فى امكانه أن يصدق حتى الآن أنه تمكن من خلق حياة جديدة .. حياة انسانية لم تظهر بعد . وظل يسير مدة من الزمن ، وقد غرق فى غمارحلمه واعجابه الفائق.. وما لبث ان سرت اليه أنغام الموسيقى ، فردته الى عالم الحقيقة ، ورفع رأسه فرأى أن الممر يوصل الى بقعة صغيرة مستديرة منزرعة ، تتفرغ منها بضع ممرات أخرى . ورأى على مقربة منه القصر بواجهته الخلفية المظلمة . وكانت الانوار تشع من النوافذ .. وعرف لويس أنه سار - فى ذلك الممر - نصف دائرة كاملة حول القصر .

وكان سيجاره قد انتهى ، الا أنه - بعد أن تذوق الهواء العليل - لم يجد من نفسه ميلا للدخول الى القصر . ووجد مقعدا يغمره ظلام الحديقة ، فجلس عليه .. وهناك استقرت عيناه على القصر ، فراح يصغى الى الموسيقى التى كانت تصل اليه متقطعة لطول المسافة .. ورأى ثلاثة أشباح تتحرك مقبلة نحوه ، فلما اقتربت، استطاع أن يتبين الاصدقاء الثلاثة : اصدقاء «روكبيكيه» ، وهم يتضاحكون ، ويتراشقون بالنكات .

واستمر الاصدقاء الثلاثة يقتربون من لويس ، فقال فى نفسه : « ليتهم لايفطنون الى وجودى » !.. فلم يكن يهمه كثيرا أن يتحدث الى أصدقاء روكبيكيه ، أو أن يمكث معهم ! .. ولم يروه ، ولكنهم وقفوا فى الممر المجاور له . وكان بوريس يقول لزميليه : « لقد أصبنا كثيرا فى الهرب من حفلتهم الراقصة اللعينة .. ياللحر الشديد هناك ! » .. وتلفت ديسبيرو حوله ، وقال : « حقا .. ان الحر شديد فى الداخل ! » . وأردف اسكادافال : « أما هنا ، فالهواء عليل ! »

وقال بوريس يخاطب ديسبيرو : « مارأيك فى الجلوس هنا ، على هذا المقعد القريب ، لندخن ؟ » .. فهز دسبيرو رأسه معترضا ، لأنه كان يخاف البرد . ولكنه وافق فى النهاية ، وقال : « سأبقى واقفا فى مكانى الى جانبكما ، حتى لا يؤثر فى البرد كثيرا » .

وسمع لويس أصواتهم وهم يجلسون على المقعد المقابل لمقعده ، بحيث أصبح لايفصله عنهم غير بعض أشجار قليلة الارتفاع . ثم سمعهم يشعلون لفافاتهم .. وما لبث اسكادافال ان صاح : « اذن فقد تزوج الصديق هنرى روكبيكيه ! » .. ودق ديسبيرو الارض بقدمه ، وقال : « ولقد عقد زواجا حسنا ! » . ثم أردف قائلا : « انه سعيد الحظ بأمه ، فلولا هذه العجوز — كما يسميها — لقلد الولد أباه ، وملأ القصر بالفتيات و .. » . وهنا قاطعه بوريس قائلا : « لولا أمه لأتجه هنرى روكبيكيه الى مكان أعرفه جيدا .. كان خليقا أن يتزوج — بدلا من لافاليت الصغيرة التى تملك مليونين من الفرنكات — ابنة الطبيب جوفر التى لا تملك شيئا ! »

***

ولم يكن لويس يصغى الى قولهم بانتباه ، ولكنه لم يكد يسمع ذكر « ابنة الطبيب » حتى ارهف اذنيه ، ليلتقط صوت ديسبيرو وهو يقول مترنما على أنغام اللحن الذى كانت الموسيقى تعزفه ، فى تلك الاثناء : « ابنة الطبيب ؟ ! .. انها الاخرى قد أصابها الحظ السعيد ، فقد تمكنت ـ بعد كل الذى حدث لها ـ من أن تجد لنفسها زوجا ! » .. وعقب بوريس على كلامه بقوله : « وهو زوج غنى ! .. ماذا ترى فى هذا الزوج ؟ » . فقال ديسبيرو : « انه جميل الشكل ! »

ـ لقد كان جميلا منذ صغره .. هل تذكره بعصاه ورباط رقبته ؟ .. انه صفقة رابحة لمدموازيل جوفر ـ على كل حال ـ فهى فتاة لا تملك فلسا واحد ، ولا تؤمن بالله ولا بالشيطان .. فتاة دفعت الناس الى التحدث عنها .. انها ماهرة فى اجتذاب الرجال ، وانى لواثق من أنها كانت تشعر بالرغبة فى الزواج منذ سن الثانية عشرة !

فقال اسكادافال : « آه . منذ الثانية عشرة ! .. انك لتبالغ فى أقوالك يابوريس ! » .. ولكنه سرعان ماندم على اعتراضه ، اذ راح صديقاه يسخران منه ، ويقولان : « يالك من أحمق ! » .. « ياللغباء ! » . وتلقى النقد صامتا .. فى سن الثانية عشرة ، ولم لا ؟ .. ربما فى سن العاشر كذلك ، وروى ديسبيرو ـ عن طبيب بالجيش ـ ان فتاة وطنية فى أفريقيا ، حملت من أحد الجنود وأنجبت قبل أن تبلغ الحادية عشرة من سنها ! .. وما ان انتهى ديسبيرو من قصته ، حتى سيطر الصمت على الاصدقاء الثلاثة . وعادت فرقة الموسيقى تعزف أدوار الرقص بعد سكون استمر بضع دقائق ، وكانت أنغامها تصل الى الحديقة .

وشعر لويس كأنه مقيد فى مقعده ، فقد أثر فى نفسه

ماسمع عن زوجته ، وخالجه شعور خفى بأنه سيسمع حديثا آخر ، لو ظل جاثما على مقعده . وتمنى لو كشف عن جميع الافكار الساقطة أو العدائية التى تجول بعقول هؤلاء الرجال الثلاثة . وبدأ يستثقل صمتهم ..

وكان بوريس أول من قطع حبل هذا السكوت ، فقال بحزن : « هكذا الدنيا !.. ان الفتيات الشريفات الأمينات لايتزوجن .. أنظر الى ابنتى يا ديسبيرو ، أنظر الى جان .. انها على جانب من العلم ، كما انها تتردد على الكنيسة ، ولم تلك الالسنة اسمها اطلاقا ، ومع ذلك فلا بد لنا من أن نلقى بها الى زيجة تعسة ، أو نزج بها الى الدير .. فى حين ان الفتيات اللاتى اتصلت الواحدة منهن برجلين أو ثلاثة .. مثل هذه الفتاة .. » . وقاطعه اسكادافال متسائلا : « ومن هم هؤلاء الرجال ؟» . فأجاب : « أولهم السيد روكبيكيه» . واذ ذاك ، صاح ديسبيرو : « هراء يا بوريس ! لاتكذب !.. انك لتعرف جيدا — كما أعرف أنا — أن روكبيكيه لم ينل منها قلامة اظفر ، فلقد كان شديد الحياء فى ذلك الوقت . أما الآن فقد تغير الموقف ، لأنه يخدع زوجها .. قد يكون من الخير لو أن لويس لوت المسكين سهر على .. »

ولم يدعه بوريس يكمل جملته ، بل اندفع قائلا : « اذا لم يكن هنرى روكبيكيه قد نال منها وطرا ، فان الضابط الكورسيكى — الذى سكن بالقرب منها — لم يدعها تفلت من يديه !.. اننى لأعرف الشىء الكثير عن هذا الموضوع » . فتساءل اسكادافال : « وما الذى تعرفه ؟ » .

واذ بلغ اهتمام ديسبيرو بالموضوع هذا الحد ، اقتربت رؤوسهم ، وأخذ الثلاثة يتهامسون ، وحركاتهم تبعث الخوف فى النفوس ، اذ تبدو كحركات الشياطين فى بهيم الليل . وكان بوريس شديد الحماس ، حتى أن صوته كان يرتفع

من حين الى آخر ، فتصــدر منه كلمـات تصـل الى اذنى لويس .. وكان من بين ماسمع : « مع الضابط الكورسيكى ! .. ان لاتيج الصغير قد رآها ، فقد كان ذلك الولد يحب الحسناء .. كان يذهب كل مساء ، بعد أن يخرج من متجر عمه ، ويتسلق السور ليراها فى ساعة النوم !.. ولكن أرجو ألا يردد أحدكما شيئا من هذا الحديث ، لأن لارتيج اعترف لى به فى النادى _ ذات مســاء _ بعـد ما أسقيته بعض الخمر ! »

وأطلق ديسبيرو ضحكة قصيرة ، وقال : « ها ! ها ! ها ! .. وبعد ذلك توفى الضابط ، وهو فى مدينة (تونكين) .. أليس كذلك ؟ »

_ نعم !.. ثم عاد ذلك الساذج المخدوع فى الوقت الملائم ، لينتشــل المرأة .. والشىء الآخــر .. ويأخذ التبعة على عاتقه هو ..

وقاطعه ديسبيرو قائلا : « ولكن من الذى يعرف الحقيقة ؟ .. وربما كان هو _ لويس _ الذى فاز بها قبل الآخر . الا تذكر أنهما لم يكونا يفترقان فى صـغرهما ؟ » . فصـــاح اسكادافال : « هذا صحيح !.. هل تعتقد يابوريس أنهــا .. مع ذلك الولد الصغير ؟ » . فأغرق بوريس فى الضحك ، وهو يقول : « نعم أيها الأحمق ، وهذا خير له على كل حال .. ان هذه أحسن وسيلة يخدع بها نفســه ، بدلا من أن يخدعه رجل آخر ! » . وقهقه الاصدقاء الثلاثة ، ثم هتف ديسبيرو : « يا الهى ! .. لقد بدأت أشعر بالبرد ، ويخيل الى أننى أصبت بزكام .. فلنسرع بالدخول ! »

ورأى لويس أشباحهم _ المختلفة الاحجام _ وهى تتحرك فى اتجاه القصر ، ثم تختفى عن نظره .. وأحس بلفحة من

الهواء تهب على وجهه ، وتحمل اليه نغمات الانشودة التى كانت تعزفها الفرقة : « أمل الايام السعيدة » !

***

ظل لويس مسمرا فى مقعده لا يتحرك ، وقد أصابه ذهول عجيب ، حتى بات أشبه برجل تلقى ضربة قوية على رأسه . وكانت الضربة القوية هى الخبر اليقين الراسخ الذى سقط على رأسه ، وكاد يقضى عليه .. ذلك الخبر الذى كان يجزم بخيانة امرأته ـ لم يصل اليه بسلسلة طويلة من الاستدلالات والاستنتاجات التى يحبكها الروائيون ، بل انه وصل اليه فجأة ، ووجد غذاء قويا من نفس الحب العظيم الذى كان يعمر فؤاده .

وكان لذلك تأثير يشبه تأثير عود الثقاب اذا اقترب من المواد المفرقعة ، ففى لحظة واحدة تشتعل تلك المواد وتتفجر .. كانت ذاكرته قد احتفظت ـ دون أن يفطن ـ بآلاف الحوادث وآلاف المشاعر التى تجمعت فى نفسه ، فأدرك ـ فى تلك الساعة ـ كل شىء . وتذكر ذلك الاضطراب الشديد الذى أصاب «كاميل» عندما علمت بوفاة جياكوميتى ، وتذكر مقاومتها الشديدة عندما اقترح عليها استشارة الطبيب .. لقد كانت مقاومتها شديدة جدا ، الى درجة كفيلة بأن تثير الشك ، الا لدى من كان مثله ، مغمض العينين !

وتذكر ـ بعد ذلك ـ هيئة الدكتور روبير الغريبة ، على اثر اجتماعه بكاميل .. وانقطاعه عن الحضور ثلاثة أيام ، ثم تردده فى الحضور .. وجزع كاميل عندما قرر العودة بها الى مدينة (تونيان) .. انها ـ ولا بد ـ كانت تخاف والدها !

أدرك لويس كل هذا فى وقت واحد ، ولم يدركه فى تتابع الحوادث التى مرت . فيالغرابة العقل الانسانى ! .. كان لابد من أن يتردد صوت من الخارج ، ويرن فى اذنه قائلا: « لقد كانت زوجتك عشيقة جياكوميتى ! » ، حتى يفطن الى كل تلك الحوادث ، مع انها كانت منقوشة على ذهنه !

وكم كان هذا الاكتشاف قاسيا ، وكم كان مؤلما ، حتى لقد شعر كما لو ان الموت داهمه .. وأحس كأن سهما أصاب قلبه .. بل كان ألمه فى أول الامر ـ نوعا من الضرب بالسياط ، ولكنه لم يلبث ان خلف ألما حادا ، اخذ يتزايد شيئا فشيئا حتى استفاض .. ان شخصية المرء ـ فى مثل هذه الحالة ـ تزدوج وتصبح اثنتين بدلا من واحدة ، حتى ليشهد المخلوق البشرى نفسه وهو يقاسى ، فيقول : « لكم أتألم !.. لم أكن أظن أن فى امكان احد ان يقاسى الى هذا الحد .. وان الالم ليتزايد ! »

والحق ان شدة الالم تتجلى فى عدم الاحساس به .. لقد مرت على لويس فترة من الزمن ـ لم يعرف مداها ـ خارت فيها قواه ، وفقد فى أثنائها الاحساس بأى شىء اللهم الا بحمى متزايدة تدب فى كيانه .. وفى القصر ، كانت الموسيقى تعزف لحنا راقصا ، فخيل الى التعس أنه فى حلبة الرقص ، وانه يرى وجوه الجميع وملابسهم المختلفة الالوان ، وهم يرقصون ويدورون فى القاعة ويضحكون . أجل ، ان منظر الراقصين الضاحكين كان الشىء الوحيد الذى راح يتمثل لعينيه فى تلك الساعة الرهيبة !

وما لبث كل ذلك أن أخذ فى الزوال بكل بطء ، وخالجه الشعور الذى يحس به المريض اذا اقترب من الشفاء . فأخذت الافكار الغريبة تجول فى رأسه ، وغادر مقعده فسار الى الامام ، وهو مضطرب الحواس ، موزع الفكر .. وكانت

السماء قد بدأت فى الشحوب ، وشاع فيها ضوء ضعيف كان ينعكس من بين فروع الاشجار .. وكانت هناك نفس بشرية محطمة ، تحاول أن تستجمع شجاعتها فى تلك المخابىء .. وكانت درجة الحرارة قد أخذت فى الانخفاض – مع اقتراب الفجر – وأخذ الندى يخضل فروع الاشجار .

وبدأت خيوط الضوء الاولى فى الظهور من ناحية الشرق، يعترض سبيلها بعض الغمام .. وسار لويس ببطء ، حتى اختفى صوت ضجيج بنى الانسان عن اذنيه ، ولم يعد يصل الى سمعه غير وقع قدميه على الارض الصلبة ، وهمسات الهواء بين الافنان ، فى الغابة المجاورة .. وشعر بالرعدة تسرى فى جسمه ، فانكمش فى ثيابه . واذ ذاك فقط، شعر بالقوة على التفكير ..

ولكن الاعتقاد الراسخ الذى تسلط عليه فى بادىء الامر ، مؤكدا خيانة زوجته ، لم يلبث أن أخذ يتبدد تدريجيا .. وشعر لذلك بسرور عظيم . وأخذ يفكر فى الاساس الواهى الذى قام عليه هذا الاعتقاد .. مجرد كلمات تبادلتها أفواه الحساد ، وكلهم من أهل الجنوب الذين إشتهروا بالكذب والنميمة والحسد . آه ، حقا !.. كل الذى سمعه كذب وخطأ !.. لقد أخذ الحب فى الانتصار ، وراح يطرد الشك .. ان كاميل لايمكن أن تكون مذنبة ، مادام يحبها !.. وشعر براحة لأن الحرارة بدأت تدب الى جسمه من جديد ، وتسلط عليه الميل الى المرأة المعبودة ، مرة أخرى . فأى تأثير ذلك الذى يمكن أن يكون لبضع كلمات تناثرت فى الهواء ، أو بضع ذكريات بعثتها المصادفة، ازاء شهور عديدة من الاغراق فى الحب ؟!.. هل خدعه ذلك العناق الحار ؟.. وتلك القبلات الجنونية هل كذبته ؟!

ولكنه مالبث أن توقف فجأة فى تفكيره ، اذ تذكر شراهة

الشفتين ، وتلك الضمات ، وذلك العناق الطويل .. تلك الاشياء كلها بدت له شاهدة على اتهام كاميل . فلا يمكن أن يكون لعذراء هذا الالمام بفنون الحب !

واذ بلغ من تفكيره هذا الحد ، أحس كأن شخصا قد دهس قلبه بقدمه . فقال لنفسه : « لقد علمتنى أشياء كنت أجهلها ! » .. أشياء فقط ؟! .. انها علمته الحب بأكمله ، فقد كان يجهل كل شىء ! .. وهكذا استولى عليه يقين مرعب ، زاد من غضبه الطاغى ، حتى أنه شعر برغبة فى أن يقتل بنفسه نكاية فيها ، لأنه لم يعرف الحقيقة الا بعد مرور هذا الزمن الطويل ، والا بعد ان سمعها على ألسنة الغير ..

وأخذ النهار فى الظهور .. مجرد ضوء شاحب ، يغالبه الضباب ، وقد أخذ ينتشر رويدا ، فاذا به يلف الحديقة فى غلالة من الحزن فاقت تلك التى كان يسبغها الظلام .. وتلفت لويس حوله ، لايكاد يدرى أين كان .. كل ما بات يهمه هو أن يبتعد عن هذا المكان ، الذى نسى سبب وجوده فيه !.. لذلك راح يجد فى السير ولكن ما لبث السور ان قام فى طريقه ، فرأى نفسه داخل نطاق القصر .. وكانت لا تزال هناك ــ وراء نوافذ الطابق الاول ــ بعض الانوار الضعيفة ، وقد أخذت أضواء الفجر اللازوردية تنعكس عليها .. وكانت الموسيقى قد انقطعت عن العزف ، ولم يعد يسمع غير أصوات أطباق الطعام ، توحى بانفضاض القوم عن الموائد ..

وكانت ثمة مصابيح صغيرة قد أخذت تتحرك ، اذ كانت العربات تستعد للعودة . وأخذ لويس ينظر الى كل هذه الاشياء وقد بدا عليه وجوم كذلك الذى يعلو العائد من المقابر ، عند ما يفاجأ بمظاهر الحياة .. وخيل اليه أن هوة

سحيقة تفصله الآن عن كل هذا العالم . كما بدا له ان عودته بالعربة ــ كما جاء ــ وان الالتقاء ببوريس وصديقيه وروكبيكيه وبقية المدعوين ، أمر بغيض .. فظيع .. وكان البلل قد أصابه من ندى الفجر ، وأخذت أسنانه نصطك من شدة البرد . فاستقر رأيه على أن يتحاشى الجميع ، وأن يتجه الى الطريق العام ، متخطيا كل ما كان هناك من حواجز .. وسرعان ماتراءى له الوادى ــ الذى اجتازه فى الامسية السالفة ــ كما شاهد فى السماء بقية من نجوم !

***

وكم للمؤثرات الخارجية من وقع فى النفوس المرهفة ، الرقيقة !.. فعندما رأى لويس السماء ــ فوق الوادى ــ والافق المنبسط أمام ناظريه ، عاوده نفس الشعور الذى داخله منذ ساعات ، فقال مفكرا فى نفسه : « انها هناك ! »

وكانت قوة العاطفة التى دفعته الى هذا القول ، توازى القوة التى دفعته الى تذكر زوجته فى المرتين السابقتين .. ولكن كرامته ما لبثت أن ثارت ضد ضعفه الجسدى ، فعلى الرغم من أن الشك كان يراوده فيما سمع ، الا أن الاعتقاد بأن « كاميل » مذنبة أخذ يرسخ فى ذهنه .. وشعر بأنه لابد له من أن ينتزع السر من ذلك الفم الذى طبع وختم بالكذب ، فانطلق يعدو بقية الطريق .. وأخذ ضوء النهار يتضح أثناء جريه ، فتراءت له الجبال الشاهقة ، وشرعت الاصوات ترتفع فى عرض الطريق ، فبدأ يسمع نداء رعاة البقر ، وأصوات البنات الصغيرات وهى تتردد فى الهواء ، ونباح الكلاب ..

وأخذ الصباح ينتشر بسرعة .. واخترق لويس قرية (جرتلوب) ــ وأهلها لا يزالون نياما ــ حتى اذا بارحها

بدت له (تونيان) .. ورأى منزله تميزه الاشجار العالية ، كما رأى أسطح المنازل ، وأجراس الكنائس .. وأخذالضوء يغمر المصانع .. ووقف لويس ، وقد أحس بالتعب بعد ان جرى ساعة من الزمان .. وقف مترددا مضطربا ، عند ما اقترب من المكان الذى كان يقصده .. وكانت الاصوات المختلفة تعلو من ورائه ويختلط بعضها ببعض ، ولكنه استطاع – مع ذلك – أن يميز بينها صوت عربة مقبلة فى اتجاهه .. وأسرع فانحرف الى طريق بعيد ، وما لبث أن رأى عربة كبيرة تحمل بعض ضيوف قصر (مونتريج) فى عودتهم من الحفلة ..

واستمر لويس فى طريقه ، حتى اذا وصل الى الميدان ، كانت مدينة (تونيان) قد بدأت تستعيد الحياة بعد سباتها .. فاذا نوافذ المنازل تفتح ، كما ظهرت العربات وهى تحمل بعض الفلاحين .. وسار لويس خلف المتنزه العام ليتحاشى رؤية الناس . ولكنه سرعان ما تبين أن شجاعته تخونه ، وانه لا يقوى على العودة الى منزله والتحدث الى «كاميل»، فقال فى نفسه : « سأذهب لمقابلة جوفر ! » .. ومن ثم سار على مقربة من ضفة نهر (الجارون) ، ثم اتجه نحو السلم المؤدى الى المنزل .. وكان الباب الموصل للشرفة مغلقا دون احكام – كما جرت العادة – فتمكن من فتحه ، وحول نظره حتى لا يرى غرفة « كاميل » بستائرها الحمراء من وراء الاشجار ..

بيد انه مالبث أن تمثل ذلك الوجه المعبود ، وقد استقر على الوسادة وسط هالة من شعرها الفاحم الاسود .. وعندئذ اشتد اضطرابه ، حتى لقد وقف لحظة ، ووضع يده على صدره كأن خفقان قلبه يوشك أن يقضى عليه !

ولم يكن باب منزل الطبيب محكم الاغلاق ، فدلف لويس

الى الداخل .. واذا به يصادف « ارما » فى طريقه ، فما ان رأته حتى أطلقت ضحكتها الرنانة .. ولم تؤثر ضحكة « ارما » فى نفس لويس كما أثرت فيها هذه المرة .. وكانت الساعة قد بلغت السابعة .. واقترب من غرفة الطبيب فلم يسمع حركة .. وطرق الباب ، فواتاه صوت جوفر من الداخل قائلا : « ادخل ! » ..

ووجد الطبيب جالسا أمام مكتبه ، وقد ارتدى قميصه فقط ، وانهمك فى كتابة خطاب .. وما كاد جوفر يرى لويس حتى قام فى الحال ، واتجه اليه صامتا ، ثم مالبث ان صاح : « لويس .. يالشحوب وجهك ! .. ماذا حدث لك ؟ » .. ورأى لويس صورته منعكسة على المرآة ، فانزعج لشحوب وجهه واضطراب عينيه . ولكنه — مع ذلك — أجاب بصوت ثابت : « والدى .. أريد أن أحدثك عن شيء لم يكن متوقعا !.. اننى فى حاجة اليك » .. وفجأة ، اختنق صوته فشهق ، ثم ارتمى على صدر الطبيب وهو يقول : « أواه ! .. اننى تعس جدا .. تعس جدا » ..

كانت الصدمة الهائلة — التى احتملها فى الليلة السالفة — قد دهمت أعصاب هذا المخلوق المرهف الاحساس ، ثم تحولت — عندما رأى الشيخ الطيب — الى سيل من الدموع المنهمرة .. فقدم اليه جوفر مقعدا ، وساعده على الجلوس ، ثم جلس بجانبه وقد أمسك بيديه .. ولما كان يدرك أن أية كلمة كانت كفيلة بأن تزيد من اضطراب لويس ، فقد آثر السكوت ، وان بدت على أساريره امارات التفكير العميق ، وهو يحاول أن يقرأ السر القاسى فى عينى الشاب المبللتين بالدموع .. وما لبث لويس أن تمالك عواطفه ، فمسح عينيه ، وتطلع الى الطبيب قائلا : « اننى أعرف — ياوالدى — انك تحبنى ، وأوقن من انك أخلص أصدقائى .. حسنا ! اننى

أشك .. وانه لشك فظيع ، أرجو ان تسامحنى اذا حدثتك عنه ! »

وقاطعه جوفر متسائلا : « هل تشك فى كاميل ؟! .. اننى أيضا أشاركك هذا الشك ! »

ووقف لويس فجأة ، وصاح : « أنت أيضا ؟! .. أنت تعرف كل شىء ؟ اذن فقد خدعتنى ! اذن فقد كنت شريكا لها .. » . وهز الطبيب رأسه قائلا : « لا .. انما قلت لك اننى أشتبه فى الامر ، لأننى لاحظت أنها تخفى عنك شيئا .. لقد مرت بضعة أيام وأنا أرجو أن أفاتحك فى هذه المسألة ، ولكنى كنت اقول لنفسى : « لماذا ازعجه ؟ » .. ان ما أشعر به أنا نفسى ، ليس سوى مجرد شك .. ولكن ما الذى عرفت أنت ؟ »

وقال لويس : « لقد سمعت أن هناك اشاعة انتشرت فى المدينة ، وتتلخص فى ان كاميل كانت عشيقة الضابط .. ذلك الرجل المدعو جياكوميتى ، الذى كان يسكن هنا » .

ــ ان هذا لايقوم دليلا على شىء .. ومن الذى يردد هذا القول ؟ !

ــ بوريس وديسبيرو ، صديقا روكبيكيه ...

ــ انهما كاذبان .. وكيف لهما أن يعرفا ذلك ؟ .

ــ هذا هو مايجعل الامر قابلا للتصديق ، فان الشاب « لارتيج » ــ الذى فوجىء وهو يتطلع بمنظاره الى داخل منزلنا من مدة قريبة ــ شاهد ذلك الضابط الكورسيكى فى غرفة كاميل ، فى احدى الليالى ..

وثبت جوفر نظره على لويس ، ثم قال : « وهل يكفى هذا للحكم على زوجتك .. انك لم تخبرنى بكل شىء ! » .

فأجاب لويس بصوت متهدج : « هذا حقيقى ، فان الشك الذى داخل نفسى وسبب شقائى لم يكن منبعثا عن تلك

الكلمات التى سمعتها بطريق المصادفة .. وانما فتحت الكلمات عينى ، ولا بد أنى كنت أعمى لأنى لم أر شيئاحتى هذا اليوم .. »

وأخذ يقص على الطبيب ماحدث أثناء شهر العسل . وما اعترى « كاميل » وصديقه « روبير » ، بعد ان قام بفحصها .. وأخذ الدكتور جوفر يفكر ، ثم تمتم قائلا : « نعم ، ان هذا فظيع .. فهل يمكن أن تكون تزوجت وهى تحمل جنينا ؟ ! .. اننى الآن أذكر أشياء غريبة مختلفة ، حدثت قبل عودتك .. ومع ذلك ، فأين تمكن ذلك الرجل من الاختلاء بها ، وقد كان يتغيب عن منزله طول النهار ؟ »

ــ بالليل ! .. لقد ذكروا أنهما شوهدا معا بالليل .

ــ بالليل ؟ .. نعم ، ان هذا ليس مستحيلا ، على أية حال !

ولكن لويس أمسك بيدى الطبيب ــ فى تلك اللحظة ــ وصاح به : « أواه ، لا يا سيدى الطبيب .. ياوالدى ،لاتقل ان هذا محتمل الوقوع . لو صح هذا لكان شيئا فظيعا .. وبعد ، انها تحبنى .. هل تسمع ؟.. انها تحبنى !.. اننى واثق من ذلك ثقتى من اننى حى أرزق ! » .. ونطق بهذه الجملة الاخيرة وهو يعلق أمله الاخير على تلك الثقة التى كان يوحيها اليه جسمه وعقله . فقال الطبيب : « هذا حقيقى ، انها تحبك » .

ــ وما دامت تحبنى ، فهل تراها تتزوج منى وهى تحمل طفلا من رجل آخر ؟ ! .. هل تراها تقدم على مثل هذا العمل الشائن ؟ .. أجبنى عن هذا السؤال !

فأجاب جوفر بصوت منخفض ، كأنه يخاطب نفسه : « ربما .. ان المرأة قد تخون وتخدع ، بالرغم من شعورها بالحب ! » .. وسكت الاثنان بضع لحظات ، كأنهما يحاولان

دفع ذلك الاعتقاد ــ بخيانة المرأة ــ عن أن يسيطر على فكريهما رغما عنهما . وقال جوفر أخيرا : « اصغ الى يا لويس !.. ليس فى أمكانك أن تعيش بهذا الشك ، فاذهب الى كاميل فورا ، واستجوبها لكى تعرف الحقيقة ! » ..

فأبدى لويس اشارة تدل على اليأس والقنوط ، وقال : «لا ، لا ! .. لايمكننى أن أفعل ذلك ، فأنا أحبها كل الحب، وستخور قواى اذا ما رأيتها .. اننى أعرف ذلك ! »

ــ حسنا .. هل تود أن استجوبها أنا بنفسى ؟

وتردد لويس فى السماح له بذلك ، فقد كان يستنكر استجواب « كاميل » بهذه الطريقة . ولكنه فكر فيما احتمله من عذاب فى الساعات الخمس الماضية ، وأدرك أن كل شىء يهون الى جانب ذلك العذاب .. كل شىء ، حتى الفاجعة النهائية .. ولذا فقد ارتضى أخيرا ما اقترحه الطبيب .

***

وارتدى الدكتور جوفر ملابسه ، ثم غادر الاثنان المنزل المنعزل ، دون أن ينبسا بكلمة واحدة ، واتجها صوب « الغابة العذراء » .. وكان المنزل لا يزال نائما ، لأن أهله لا يستيقظون الا متأخرين احتراما لنوم كاميل . وتقدم لويس حماه ، فان الحاجة الماسة الى ايجاد حل للمشكلة ، بعثت بالنشاط الى قلبه . وكان صوته ثابتا وهو يقول للدكتور جوفر مشيرا نحو باب صغير : « أدخل .. أما أنا ، فسأنتظر فى هذه الغرفة ! »

وكانا ــ اذ ذاك ــ فى غرفة مكتب لويس ، التى لم يكن يفصلها عن غرفة النوم غير هذا الباب الصغير ، الذى أشار اليه ..

وسأله جوفر قائلا : «سأدخل وحدى .. أليس كذلك؟».

فقال لويس : « بلى .. ولكنى استحلفك بالله أن تترفق بها ، ولا تنسى انها تحمل جنينا فى أحشائها .. وانك قد تقتلها اذا أرعبتها ! » .. فهز الطبيب رأسه وقال : « لا .. انها ليست من اللائى يقتلهن الاضطراب ، حتى فى حالة الحمل ! .. وفوق ذلك .. » .. ولم يكمل جملته ، فقد ظهر الكمد على وجهه ، وانطفأ النور فى عينيه ، فزالت اشراقته الطيبة التى كانت تضىء وجه ذلك الكهل . وظل لحظة لا يتحرك وهو ينظر الى وجه الشاب المعذب الذى ذهب ليرتمى ـ بعد أن خارت قواه وانهارت اعصابه ـ على المقعد الصغير .

ثم فتح الباب ودخل .. وكانت كاميل نائمة ووجهها الى ناحيته ، تسود معالمه الهدوء ، وقد انتشر شعرها الأسود على الوسادة .. وكان الغطاء يخفى عنقها ـ فقد كانت سريعة التأثر بالبرد ـ كما كان يطغى كل جسمها ، فيخفى قسماته .. وكانت تفوح منها ـ أثناء النوم ـ تلك الرائحة النسوية الجميلة ، التى تعطر الغرفة ذات الستائر الزرقاء .. كانت مستغرقة فى نوم عميق ، لا يمكن أن تستمتع به غير الزوجة الأمينة .. نوم لا يعترضه حلم أو خوف ، وكأنها تنتظر قبلة لتستيقظ !

واقترب منها « جوفر » ، وبدأ يتأمل وجهها عن قرب ، ويفحص الانتفاخ الذى طرأ على جسمها ، لأنه كثيرا مايدل على عدد الشهور التى انقضت ، منذ أخذ الجنين يتكون فى أحشائها .. ولم تكن هناك علامة واحدة ، ولا أتفه بقعة تشوه نقاء ذلك الوجه الذى كان أشبه شىء بوجه العذراء .. وكأنما كانت نظرة جوفر ذات قوة مغناطيسية ، اذ فتحت كاميل عينيها فجأة ، وتمعنت فيما حولها ، ثم ظهرت عليها

الحيرة والتردد ، بعد أن أزعجتها تلك اليقظة الفجائية .. وظل جوفر يفحصها بنظراته .

واذ استعادت وعيها كاملا ، بدأت تشعر بالخوف ، لما لمسته فى وجه والدها من تغير .. وأخرجت يديها من الفراش كأنها تحاول ابعاده عنها . وهمست قائلة : «والدى .. والدى ! »

وسمعت فى الغرفة المجاورة صوتا مختنقا يتأوه ، ثم ارتطام جسم بالارض .. وأرادت كاميل أن تصرخ لتنادى « لويس » ، الا ان لسانها خانها . وسقطت ذراعهابجانبها ، بعد أن خذلتها عضلاتها .. وأصابها اضطراب عظيم ، يشبه مايحدث فى الاحلام أحيانا ، مما يخاله الانسان خارجا عن حدود الحياة .. وهنا تقدم « جوفر » فأزاح عنها الغطاء بحركة سريعة ، مدفوعا بشعور قوى خفى من اليقين والقوة .. وكشف عن ذلك الكيان المرتجف .. كان قميص نومها الطويل يضم جسمها كله كأنه تمثال بديع !

وما أن أدركت «كاميل» انها خذلت ، وأن أمرها افتضح ، حتى دفنت فى الوسادة رأسها وعينيها اللتين بللهما سيل من الدمع .. ووضع « جوفر » أذنه على القماش الرقيق ، الذى صنع منه قميصها ، واذا أساريره تنفرج ..وأضاءت عيناه باهتمام الطبيب الخبير ، والفاحص المدقق ، فقدسمع نبض قلب آخر ، تصاحب الوجيب الذى كان قلب ابنته ينبض به .. وأدرك ان ذلك القلب الثانى ، كان فى الشهر الخامس من عمره .. كانت دقاته أشبه بدقات ساعة لفت فى الاقمشة ، يصحبه صوت آخر يشبه وسوسة ريحخفيفة تهب وتشتد ، ثم لاتلبث ان تضعف حتى تنعدم تماما ..

وتراجع الرجل قليلا ، ثم نظر الىتلك الشقية التىرفعت اليه عينيها الواسعتين وقد ملأهما الرعب . وتمتم قائلا :

« انه الضابط الكورسيكى ، أليس كذلك ؟ » .. وحركت شفتيها وهى لاتقوى على الاجابة .. وهنا تحول عنها جوفر، وفتح الباب ، وعاد الى الغرفة الاخرى ، التى كان « لويس لوت » قد سقط الى جانب مقعد فيها ، وقد شحب لون وجهه حتى حاكى لون الارض .. كانت الاغماءة التى غشيته قد تحولت الى نوع من النوم العميق . وكانت عيناه نصف مفتوحتين ، بحيث كان فى وسع المتأمل أن يرى لونهما . وأخذه جوفر بين ذراعيه ، وحاول أن يحمله . بينما كانت شهقات « كاميل » وبكائها المنتظم المتتابع ، تنبعث بصوت مسموع ..

اذ ذاك فتح لويس عينيه تماما ، وتمتم قائلا : « ابت ! » .. وساعده جوفر على الوقوف على قدميه ثم قال له بصوت ضعيف : « هل يمكنك السير ؟ » . فتمتم : « نعم ... فلنرحل حالا ! »

***

ونزلا الدرج ، والشاب يعتمد على الشيخ ، واتجها نحو الحديقة .. وكانت الشمس ترسل أشعتها من بين فروع الاشجار ، فتعكس على الارض عدة خيالات تتخللها بقع من الضوء .. ولم ينطق لويس بكلمة واحدة ، بينما راح « جوفر » يمر بيده على شعره الاشقر ، وهو يقول : « يالك من صغير مسكين ! »

وكان لويس قد أخذ فى البكاء ، وجسمه يهتز تحت أثر الشهقات القليلة القوية التى كان يحاول أن يكتمها ، فيغلبه ضعف أعصابه .. وظل جوفر مدة طويلة يضمه اليه .. حتى اذا رآه يستعيد شيئا من هدوئه ، قال له : « ياولدى المسكين !.. هل تسامحنى لأننى أعطيتك امرأة لا تستحق

احترام أحد ؟.. امرأة لاتستحقك أنت أيها الشاب الطيب ! »
وتساءل لويس ، تحت الحاح الشك الذى يستولى على العاشقين : « اذن فكل شىء صحيح ؟.. هى اذن تحمل طفلا من الرجل الآخر ؟ » .. كان قلبه لايزال يتشبث ببقية من أمل ، الا أن جوفر أجابه قائلا : « كل شىء حقيقى .. وتاريخ حملها يرجع الى ستة أشهر على وجه التقريب .. لقد كانت عشيقة جياكوميتى ، وتركها وهى حبلى ! »

وارتسمت على وجه الشاب معالم الالم ، بينما كرر الطبيب قوله : « انك تصفح عنى ، أليس كذلك ؟.. قل لى انك تسامحنى !.. لم أكن أعرف شيئا ، وكنت أظنها كاملة الطهارة، جديرة بك حقا !.. كيف كان يمكننى أن أعرف ؟ » .. فقال لويس ، وقد وجه نظره الى الفضاء : « آه..اننى أعرف جيدا انك لم تكن سبب شقائى ، ولكننى فى جزع .. أخاف أن يستمر ألمى .. يجب أن ارحل من هنا ! » .. فاعترض جوفر قائلا : « لا ! .. لا أريد ان تسافر يابنى.. انا .. بل هى التى يجب أن ترحل !.. ابق هنا ياصديقى، وسآخذها أنا وأرحل ! »
وهز لويس رأسه ، فقال الطبيب : « أقسم لك اننا سنختفى ـ أنا وهى ـ بعيدا عن عالم الاحياء ، فلا يستطيع أحد أن يعثر علينا . أما أنت ، فستسترد حريتك ، وسيشفيك الزمن والنسيان .. فالزمن كفيل بشفاء كل قلب انسانى ! » .. ولكن لويس قال : « سأرحل من هنا ، فان هذا المنزل ، وهذه المدينة ، بل وهذه المنطقة كلها .. كل هذه الاشياء تعافها نفسى ! » . ثم اردف ، وكأنه قد ضل الطريق ، فتشبث بيدى الطبيب ليهديه : « حين افكر فى أنه هنا ، وفى نفس هذا المكان ، ظفر بها الآخر ، واستولى عليها قبلى .. »

وأخذ يشد على يدى الطبيب حتى كان يدميها ، وهو يقول : « قبلى أنا .. أنا الذى احتفظت لها بشبابى ، وكل فكرى .. بل وجسمى أيضا .. وحين أذكر ان الانثى التى كنت اعبدها حبا ، سلمتنى نفسها للمرة الاولى وهى تحمل طفلا .. » . وضحك كالمجنون ، وهو ينطق بالجملة الاخيرة .. فراح جوفر يردد ، وهو لايجد كلمة عزاء : « أيها المسكين .. أيها الولد المسكين ! »

وظل لويس مدة لايتكلم ، ثم خطرت بباله فكرة ، فقال : « يجب أن أرحل حالا ! .. حالا ، خشية أن تدخل الآن » .. كانت هذه الفكرة ترعبه ، اذ خيل اليه ان « كاميل » اذا دخلت عليه فى تلك اللحظة ، لتلقى بدخولها الطعنة الاخيرة ، وأصيب بالموت .

واتجه نحو باب الخروج ، ولكن جوفر صده عنه بذراعه ، وهو يقول : « لايمكنك أن تسافر بهذا الشكل .. أنظر ، أنك لاتزال بملابسك الرسمية ! .. وليس معك أى شىء .. ليس معك ملابس أخرى ، وليس معك نقود ! .. انتظر على الاقل .. ثم نادى « ارما » . وكانت حقيبة لويس قد أعدت ـ من قبل ـ استعدادا لسفره الى (سان فلورى) ، فأمرها الطبيب باحضارها ، ثم فتحها وأخرج منها بعض الملابس ، وأخذ يساعد لويس على خلع ملابس السهرة ، وارتداء الثياب التى اختارها له ، ولويس لايعارض ولا يقاوم ، وكأنه لايدرى مايصنع به ، اذ كان فكره المعذب لا يقوى على استيعاب أى شىء .

وأغلق « جوفر » الحقيبة من جديد ، وأخرج حافظة نقود ـ من درج مكتبه ـ سلمها اليه ، بعد أن وضع بها بطاقة كتب عليها بضع كلمات ، ثم قال له : « ان بداخل هذه الحافظة عشرة آلاف فرنك ورقا ، وقد وضعت بها بطاقة ،

كتبت عليها العنوان الذى يمكنك أن تراسلنى فيه .. انه شباك بريد مدينة « آجن » .. ولست فى حاجة الى أن أخبرك بأننا أيضا سنغادر مدينة (تونيان) ، ولا أزال أجهل أين نستقر ! » .. ونظر اليه برهة ، ثم جذبه الى صدره ، وقال له : « والآن ، اذهب يابنى المسكين ، فلست أريد أن أستبقيك ! .. قد يعجب البعض من اننى أتركك ترحل بهذا الشكل ، ولكن .. ثق انه مامن شىء كان يمنعنى عن ملازمتك ، بل عن السفر معك ، لو اننى كنت موقنا من أن بوسعى أن أساعدك على البرء مما أصابك .. اننى ــ اذ ذاك ــ ما كنت لأحجم عن ان اهجر تلك الشقية ، التى سببت لك كل هذا الالم ، دون أن أشعر بندم ، فأنت هو ابنى الحقيقى .. أنت صديقى بروحك النقية الطاهرة . أما هى فليس لديها غير حواسها وشعور الزهو بجمالها .. ثم اننى لا أسافر معك ، لأن ماذكرته أنت هو الحقيقة ، فيجب لشفائك أن تقطع كل صلة تربطك بهذا المكان ، فان أنا رافقتك فى سفرك ، كنت بالنسبة اليك تذكارا حيا دائما لزوجتك .. تذكارا يجب أن ينمحى .. »

وابتعد لويس عن صدر ذلك الرجل الكريم المخلص ــ أقدم أصدقائه ــ بينما كان الطبيب ماضيا فى حديثه : « اذهب يابنى !.. اهجر هذه البقعة ، والزمن هو العزاء الاكبر ، والفراق هو دواء الابطال !.. لا تضاعف من ألم نفسك ، فليس مما يشرح قلب الانسان ، أن يرى تجعدات تظهر على وجهه من فرط العبوس ! .. اذهب الى أبعد مكان يمكنك أن تذهب اليه ، لا لكى تفكر وتحلم ، بل لكى تعمل .. فما من شك فى ان الاقدار ستحسن اليك ، وتتيح لك عملا يشغلك .. اذهب الى (سان فلورى) ، وكرس نفسك للعمل جسما وعقلا ! »

وكان لويس يصغى الى أقوال الطبيب .. ومع أن معناها لم يكن واضحا لفكره الشارد ، الا أنها انطبعت فيه على كل حال .. فلما صفت ذاكرته ـ بعد زمن ـ وجدها منقوشة على صفحتها ..

وضمه جوفر ـ للمرة الاخيرة ـ بين ذراعيه ، والحزن لهذا الفراق يمزق قلبه .. وغمغم : « أيها الولد العزيز ! .. يا بنى العزيز ، هل بوسعك أن تنسى ؟ » ..

واذ غادر لويس الدار ، سار قدما الى الامام . وكان عزمه يقوده ، فدار حول المتنزه العام ، ثم سار فى شارع المحطة ، فلم يلبث ان وجد نفسه بين عاملات لفافات التبغ ، وهن فى الطريق الى مصانعهن .. وكانت أصوات غنائهن تملأ الشارع ، وقد أثارت أقدامهن الغبار حولهن . اذ ذاك ، عادت الى لويس ذكرى طفولته ، حين كان يترك درسه ليتطلع الى العاملات وملابسهن الغريبة وقبعاتهن .. وكان المنزل الذى يقطنه اذ ذاك ـ مع أهله ـ يقع أمام المصنع .. وفى تلك اللحظة شعر بكل مايشعر به البائس المحسور ، وقال فى نفسه : « ليتنى لم أعد الى هنا البتة ! »

وحين تذكر أن تلك المدينة الصغيرة ـ الواقعة على ضفة الجارون ـ كانت سبب نكبته ، صب عليها لعنة صدرت من أعماق قلبه .. وكانت العاملات قد دخلن مصنعهن ، فأغلقت أبوابه خلفهن ، وتلاشت دقات الجرس . واستمد الشاب شيئا من القوة ، بسبب ماتولد فى نفسه من غضب وثورة ـ عندما وقع نظره على منزله القديم ـ فسار بقدم ثابتة الى المحطة .. وهناك ، وجد الخادمة « ارما » قد لحقت به وهى تحمل اليه حقيبته .. وكان القطار الذاهب الى (بوردو) واقفا فى المحطة ، فسار لويس الى نافذة التذاكر ، وابتاع تذكرة الى باريس .

وبعد لحظات، كان القطار يحمله خلال ذلك الوادى الباسم ، منطلقا بأقصى سرعة وكأنه يهرب به .. وتأمل لويس أسلاك البرق ، وهى ترتفع وتنخفض بحركة منتظمة تحت تلك السماء الزرقاء .. وأحس فى أعماق قلبه بنوع من الشفقة والرثاء لنفسه، ثم ما لبث ان استغرق فى ذلك النوم الباكى، الذى يستولى على الاطفال بعد ان ينالهم شىء من الضرب او العقاب !

القسم الرابع

(١)

عندما يهب الهواء من الجنوب ، يغمر سهل (الجارون) برائحة الصنوبر والملح .. اذ انه يفد من ناحية المحيط . ومقاطعة (البنيادا) بفرنسا ، تكاد تكون أكثر المقاطعات هدوءا وسكونا . فان طرقها قليلة ، لاتكاد ترى فيها الا قطعان الحيوان والصغار الذين يحرسونها ، ولا تكاد تسمع فيها سوى أصوات حوافر القطعان ، ونداءات رعاتها .. كأنها بلاد ميتة ، لاتضم غير القبور .. بل ان المزارع ذاتها تبدو مهجورة ، لا حس فيها ولا حركة ..

وكانت (ماو) احدى ضياع هذه المقاطعة ، وقد ضمت دارا واحدة وبضعة منازل خشبية أعدت للفلاحين .. وفى تلك الدار ، كان الطابق الاول يضم غرفة الاستقبال بمائدتها الكبيرة . أما الطابق الثانى ، فكانت فيه غرفة كبيرة تطل على الغابة ، وغرفتان صغيرتان تطلان على دار العمدة . وحين آلت تلك المزرعة الى والد الدكتور جوفر بالوراثة ، وجاء لزيارتها ، وجد غرفها مؤثثة أثاثا مناسبا لابأس به ،

فأغلقها وعهد بمفاتيحها الى « بولاو » ــ المشرف على الزراعة بالضيعة ــ ليعنى بتنظيف المنزل مرة فى كل أسبوع، خوفا من أن تقضى الجرذان على الاثاث . وكان يقول فى نفسه : « حين أصبح كهلا ، سأعيش فى هذا المكان مع أمى ، وأقضى أيامى فى الصيد ! » .. غير انه لم يقدر له أن يزور هذا المنزل غير مرتين ، قضاهما فى الصيد .. حتى اذا ترك العمل فى تجارته ، لازم المنزل المنعزل بمدينة (تونيان) ، ليستمتع بحرارة الشمس ، بسبب المرض الذى أصابه فى قدميه .. وان راح يحن أحيانا الى مقاطعة (البنيادا) ، فكان يزورها لماما للصيد فيها !

ولما مات والد جوفر ، لم ير المزارعون صاحب الضيعة الجديد اطلاقا ، فان الدكتور « جان جاك جوفر » لم يهتم بالقيام برحلة تستغرق يوما كاملا ، لكى يرى بعض أشجار الصنوبر فى تلك المنطقة الجرداء، فضلا عن أن مرضاه لم يتركوا له الوقت للقيام بهذه الرحلة . واستمرت زوجة « بولاو » الكهل تصحب ابنتها « ماريا » ــ فى كل اسبوع مرة ــ فتفتحان نوافذ المنزل ، وتومان بتنظيفه وتهويته وتعريض الاثاث الضوء والهواء .. وكانت الاصلاحات التى يتطلبها المنزل تتم بانتظام ، وبموافقة الدكتور جوفر ، اذ كان المزارعون يتوقعون أن يفد الطبيب فجأة ، لزيارة المزرعة فى أى وقت ، فكانوا يترقبونه وهم يجدون فى العمل فى تلك الارض المجدبة .. وكأنما كان محصولها يقل كلما ازداد المجهود الذى يبذل فيها .. وكانت السنة الاخيرة أسوأ السنوات محصولا ، اذ قل نتاج العنب ، واحترق جزء من الغابة .. وكان آل « بولاو » يمتثلون لسخط الطبيعة وغضبها ، ويتقبلون حكمها فى انصياع .. كانوا هادئين ساكنين، يتحدثون قليلا ويشتغلون كثيرا، وقد

أشرقت وجوههم بذلك الايمان الذى تبعثه الوحدة فيمن يشتغلون بزراعة الارض .

وكان « بولاو » قد طعن فى السن ، الا أن ذلك لم يؤثر فيه ، اذ ظل مستقيم العود مثل أشجاره ، رئيسا للاسرة لاينازع ، يطيعه كل من حوله .. من زوجته الى أصغر الخدم . وكان يعيش مع ولده « استينو » ، الذى كان يبلغ السابعة والعشرين من عمره .. وكان شابا قوى العضلات ، يستطيع أن يحمل أثقل الاشياء ليقذف بها الى مكان بعيد ، دون أن يتحرك فى وجهه عصب واحد !.. اما نساء الاسرة ، فكن يقمن بالاعمال الداخلية فى المزرعة ، وبصناعة الالبان ، ولكن ــ الواقع ــ اثنتين : زوجة «بولاو» ــ وهى عجوز لم يبق منها غير عظامها ، الا أنها كانت أنشط من الفتيات الصغيرات ، وقد أوتيت عينان حادتان ــ و « ماريا » ، ابنة بولاو .. وهى فتاة نحيلة الجسم ، عادية الملامح ، لها أكثر النظرات نفاذا ورقة ..

***

وفى ذات يوم ، تلقى « بولاو » بطاقة من الدكتور جوفر ، ذكر فيها أنه قادم الى مزرعته (ماو) ــ بعد يومين ــ تصحبه ابنته وخادمته ارما .. ولم يبد الرجل أية دهشة ، بل أمر ابنه « استينو » بأن يذهب الى مدينة (كاستيل جالو) ، ليستقبل القادمين ويقلهم فى مركبة الى المزرعة .. ثم كلف زوجته باعداد المنزل لنزولهم .. فسرعان ما فتحت النوافذ على مصاريعها ، وأسدلت الستائر ، ونظف الاثاث ، وأوقدت النيران فى المدافىء لطرد الرطوبة من الغرف التى أغلقت مدة طويلة ، ونظمت الحديقة الصغيرة ..

وفى ذلك المساء ، كان كل شيء قد أعد .. وعند ما جلس

آل «بولاو» لتناول العشاء ، وطال حديثهم أكثر من العادة ، فقد أثار قدوم الدكتور جوفر مع ابنته وخادمته اهتمامهم ، وأخذ كل فرد من أفراد الاسرة يبدى رأيا فى الموضوع . فسألت ماريا أمها قائلة : « اتعرفين لقدوم السيد سببا يا أماه ؟ » .. فهزت العجوز رأسها ، وقالت : «لابد ان المكان قد راق له ، ولعله اعتزم المجىء ليقضى بقية حياته هنا ، كما كان أبوه يرجوه أن يفعل .. والفرق بينهما أن الطبيب يحضر فى الوقت المناسب ، أما الآخر فقد مات قبل أن يحقق رغبته ! »

وأخذ « بولاو » وزوجته يتحدثان عن الماضى ، ويبديان رأيهما فى والد جوفر ، الذى كانا يميلان اليه لانه كان فلاحا مثلهما .. وكان بولاو قد ربى له بعض كلاب الصيد ، فذكر أياما كان يخرج فيها للصيد معه ، فيشربان من كوب واحدة ، ويقتسمان طعامهما وقت الظهر .. ولم ينس الفلاح الكهل الدكتور « جان جاك جوفر » ، الذى بات حضوره مرتقبا .. فقد رآه عندما كان صبيا ، اذ اصحطبه والده — مرة — الى (ماو) . ولم يكن الطبيب مغرما بالصيد مثل والده ، فكان يقضى معظم وقته وهو يقرأ بالمنزل ، أو يتنزه وحده فى الغابة . وذكرت زوجة « بولاو » والدة الدكتور جوفر ، تلك العجوز البخيلة ، التى كانت تحصى كل شىء بالمنزل — حتى الدجاج — والتى كانت تمسك بالاطفال وتجلسهم على ركبتيها ، لكى تسألهم عما اذا كانوا يخدمون الله باخلاص ، ويخافون الخطيئة ويهربون منها ..

وراح « استينو » و « ماريا » يسمعان هذه الروايات .. فكان الشاب يتناول طعامه فى صمت ، بينما اتسعت حدقتا الفتاة انفعالا ، وأخذت تلقى الاسئلة ، تحاول معرفة كل شىء من هؤلاء الضيوف أو « السادة » الذين سيعكرون

عليهم صفو عزلتهم .. وطلبت من والديها أن يحدثاها عن « المدموزيل » ـ كما كانوا يطلقون على «كاميل» فى (ماو) ـ ولكنهما لم يحيطا بشيء عنها ، بل كانا يجهلان أنها تزوجت، حتى ذكر لهما الدكتور جوفر ـ فى رسالته ـ « أن ابنتى ستلد طفلها فى ماو .. ! »

واضطربت ماريا عندما عرفت أن ابنة الطبيب امرأة صغيرة السن ، وأنها توشك أن تصبح أما .. فقد كانت ماريا فى تلك السن التي تداعب الفتاة فيها فكرة الامومة ، وتجذبها اليها ، وتبعث بالاضطراب الى قلبها .. كانت قد بلغت الثانية والعشرين من عمرها دون أن تتزوج ، فقد كانت مزرعة (ماو) منعزلة ، بعيدة ، لا يتردد عليها غير بعض الخدم .

ووقفت ماريا ـ فى اليوم المحدد لحضور جوفر وابنته ـ على مقربة من الباب ، تنعم النظر فى الغابة ، وتصغى لأقل حركة .. وكان « استينو » قد ذهب ـ فى ذلك الصباح ـ لينتظر سيده وسيدته فى محطة (جالو) ، بينما انهمكت أمهما العجوز فى العمل ، وراحت تتنقل بنشاط بين المزرعة والمنزل .. وكانت المائدة قد أعدت منذ الصباح ، وراح « بولاو » يدخن غليونه ، وقد جلس على مقربة من النار ، يراقب حساء الخضر وهو يغلى ، وقد ملأت رائحته اللذيذة جو المنزل .. وكان اليوم صافيا ، لطيف الهواء .

وعند الساعة السادسة مساء ، بدأت طلائع الليل فى الزحف .. وكانت « ماريا » لا تزال واقفة عند عتبة الباب ، تراقب الشمس عند الغروب ، وقد صبغت سماء الغابة كلها بلون الدم .. وفيما كانت تتطلع الى الناحية الشرقية ، رأت نقطة سوداء تتحرك بين صفين من أشجار الصنوبر ، وقد اخذ حجمها يزداد تدريجا ، حتى وضحت

فى النهاية ، فاذا بها عربة المزرعة .. وصاحت ماريا : « اماه ! .. هاهم اولاء قد حضروا » .

ولما اوشكت العربة على الوصول ، رأت « ماريا » أنها لا تحمل غير شقيقتها « استينو » ومخلوقا شيطانيا ، يكاد وجهه يختلف عن وجوه الآدميين .. تلك كانت « ارما » الخادم ، التى قفزت الى الارض ، ووقفت أمام ماريا وأمها ، ثم اطلقت ضحكتها المعهودة فارتعدت لها المرأتان .. وقال استينو : « لقد أتيت بالحقائب ، أما السيد و السيدة فسيصلان بالليل ، اذ سيتأخران بضع ساعات فى (كاستل جالو) ، نظرا لتعب سيدتى .. وستأتى بهما عربة من مزرعة فاج » .

ووصل جوفر وابنته فى تلك الليلة فعلا ، فى عربة كبيرة مقفلة . واقترب « بولاو » من العربة وقبعته فى يده ، وتبعته « ماريا » وهى تحمل مصباحا . وانحنى الطبيب وتطلع من نافذة العربة ، فقال له بولاو : « أهلا بالسيد جوفر ، أرجو أن تكون قد قمت برحلة مريحة .. هل تود أن تنزل هنا ، أو عند المنزل ؟ » . فقال الدكتور : « بل عند المنزل ! .. أرجو يا «بولاو» أن ترشد سائق العربة الى الطريق .. هل هناك أحد بالمنزل ؟ » . فقال بولاو : « نعم يا سيدى ، هناك زوجتى العجوز ، وخادمتكم . وستريكم ابنتى الطريق .. هيا يا ماريا ! »

وتقدمت « ماريا » العربة ، تحمل مصباحا كشف عن الطريق ، وعن اطار من الغابة المعتمة التى كانت تحيط به .. وشعرت الفتاة بأسى اذ رأت شبحا مجللا بالسواد ، منزويا فى ركن العربة ، جامدا ، لا يكاد يتحرك ، حتى لقد خيل اليها أن صاحبته الشابة كانت تستبق الزمن فتعيش فى حزن على نفسها ، وكأنها تتوقع الموت عن قريب ، وكأن

ذلك المنزل المهجور - الذى كانت مقبلة عليه - قبر يوشك ان يحتويها .. وايقنت الريفية انه لا بد من باعث قوى ، خطير ، لذلك القدوم الفجائى . وحركت فطرتها الطيبة قلبها بحنو صادق نحو تلك المخلوقة المسكينة ، التى اقتيدت الى هذه العزلة ، فى ليلة كتلك الليلة ، اختفت فيها نجوم السماء!

ووقفت العربة عند باب المنزل ، ففتح الدكتور جوفر بابها ، ونزل .. ثم مد ذراعيه الى كاميل ، فساعدها على النزول ، وسألها : « هل تقدرين على السير ؟ » فأجابت : « نعم » .. ولاحظت « ماريا » جفاء صوت ذلك الأب ، والرعدة التى سرت فى جسم الشابة عند ما خاطبها ، فاقتربت منها ومدت اليها ذراعها اليسرى ، دون أن تنبس بكلمة .. ونظرت اليها كاميل لحظة قصيرة ، وفى غمرة ذلك اليأس الذى كان يحيط بها من كل جانب ، أحست بغريزتها بذلك العطف الخفى ، فشكرت الفتاة الفلاحة بنظرة رقيقة ، واتكأت على ذراعها التى قدمتها اليها .

وكانت النار تشتعل فى مدفأة غرفة الانتظار ، التى حولت الى غرفة للمائدة ، أعد فيها العشاء .. وخرجت زوجة بولاو من المطبخ لتحيى الضيوف ، فأزعجها مظهر جوفر الدال على خطورة الموقف ، ومنظر كاميل وقد تهالكت فى مقعد ، وعليها مظاهر الاعياء . فلم تجد العجوز كلمة تقولها ، واسرعت الى المطبخ لتعود بأطباق الحساء الساخن ..

وكانت « ماريا » تحاول - فى تلك الاثناء - أن ترفع قبعة المرأة الصغيرة بأصابعها الصغيرة ، ثم ساعدتها على خلع معطفها ، وقدمت اليها قدحا من الماء .. ثم عاونتها على الجلوس الى المائدة ، حيث كان جوفر قد اتخذ مجلسه . وتناول الاب وابنته القليل من الطعام ، دون أن ينطقا بكلمة واحدة . واضطربت زوجة « بولاو » ، اذ خيل اليها أن

الطعام الذى أعدته لم يعجب السيد وابنته ، فتبادلت مع ابنتها نظرات تدل على القلق ..

وأزاحت كاميل طبق الطعام من امامها ، ثم نظرت الى والدها فى رجاء ، وهمست قائلة : « أريد أن آوى الى مضجعى » .. فاستدعى الطبيب « ارما » .. وسرعان ما راحت كاميل تصعد السلم فى تثاقل واعياء ، تساعدها « ارما » و «ماريا» ، حتى وصلت الى غرفتها ، فاستقبلها الدفء الذى خلفته نيران المدفأة ، ومنظر الفراش وقد أزيحت عنه الستائر ، وظهرت عليه الأغطية البيضاء النظيفة .. وألقت «كاميل» على ما يحيط بها نظرة كليلة . واقتربت منها « ماريا » ، وقد بدا فى عينيها الجميلتين ما يدل على الاخلاص ، وعلى رغبة كامنة فى الفوز بحب مخدومتها . فسألتها كاميل : « أين غرفة والدى ؟ » .. وأشارت ماريا الى الباب الملاصق قائلة : « هنا يا آنستى » .

أهو قريب منها الى هذه الدرجة ؟ .. ألا يمكنها أن تهرب من الحراسة التى فرضها عليها هذا السجان ؟.. وشدت قبضتها فى حركة تدل على اليأس والغيظ . وكانت «ارما» تسير فى الغرفة ، وقد راحت ضحكتها ووجهها – وهو أقرب الى وجوه الشياطين – يذكران كاميل بأيام الشقاء التى شهدت انهيار بينان سعادتها. وانفجر غضبها – فى النهاية – فصاحت بها : « اليك عنى ! » .. وهربت الحمقاء فى طاعة تشبه طاعة الكلب المضروب . واذ ذاك ، ارتمت « كاميل » فى مقعد، وأخذت الدموع – التى كتمتهافى حضرة والدها – تسيل من عينيها ..

***

ولم يسع ماريا الا أن تغلق باب الحجرة بحركة غريزية ، حتى لا يكتشف أحد أن سيدتها كانت تبكى .. وذهبت

فجلست عند قدميها ، ثم تناولت احدى يديها - وكانت فى لون الشمع - وألصقت بها شفتيها فى هدوء . ولم تتكلم ، ولم تحاول أن تدخل العزاء الى نفسها . ولما ذهبت عن « كاميل » نوبة الحزن التى انتابتها ، قدرت ذلك العطف الصامت الذى لمسته من « ماريا » ، وتأثرت لما تمثل فيه من حب .. ففى ذلك المنفى ، وتلك العزلة التى كان مقدرا عليها أن تعيش فى غمارها ، كان للحب - الذى يقدم لها - ثمن يفوق كل تقدير .. ولم يسعها الا أن تضغط يد الفلاحة - وقد اشتد تأثرها - وهى تقول : « يجب أن تترددى لرؤيتى من حين الى آخر » . فأجابتها ماريا : « اننى على استعداد للقيام بخدمتك يا آنستى لو أردت ! » .. وهزت كاميل رأسها ، وقالت : « اننى أود من كل قلبى .. ولكن كل شىء يتعلق بوالدى ، مع الاسف » . وأخذت « كاميل » تخلع ملابسها ، تعاونها « ماريا » ، التى راحت تحدثها ببطء بلكنتها اللطيفة ، وقد وجدت فيضا من الكلمات تسرى بها عنها .

وتركتها كاميل تطربها بموسيقى تلك الكلمات وهى فى لهو عنها ، اذ كانت شاردة البال .. حتى اذا تأهبت للنوم ، دخل الطبيب الى الغرفة . وما ان رأى أن « ماريا » قد احتلت مكان « ارما » فى خدمة ابنته ، حتى عبس وقال لها : « عودى الى والدتك يا ابنتى ، فليست السيدة بحاجة الى خدمتك ! » . وما ان خرجت ماريا ، حتى اقترب من فراش ابنته ، وقال لها فى جفاء : « كيف حالك ؟ »

- اننى بخير غير أنى أشعر بشىء من التعب ، وهذا كل ما هنالك ..

ووضع جوفر يده على الغطاء وقال لها : « ان بك شيئا من الحمى .. هل أحسست بحركات جديدة ؟ » . وأشارت

كاميل بالنفى ، فقال لها : « اذا شعرت بالالم هـذه الليلة ، فأنا هنا قريب منك ، كما تعرفين ، وما عليك الا ان تناديني أو تطرقى الباب فى الحال ! » .. وغـادر الغرفة دون أن يقبلها أو يصافحها..ووجدت كاميل نفسها وحيدة ، يحيط بها ظلام الغرفة المغلقة النوافذ ، التى لم يكن يصـل اليها شعاع واحد من الضوء الخارجى .

وشعرت التعسة ـ فى ذلك الظلام ـ بأنها أضعف مخلوق على سطح الارض ، وان العالم كله قد نبذها . واشـتدت بها الحمى ، فأخذت تستعيدحوادث الايام الاخيرة ، منـذ اكتشـاف فضـيحتها الى سفرها الفجائى من (تونيان) فى الليلـة السـابقة .. وكانت تجهل الأعـذار التى انتحلها والدها الدكتور جوفر لسفره الفجائى .. وكانت تجهل ـ كذلك ـ أين ذهب زوجها « لويس » .. وهل كان بوسـعها أن تجرؤ على سؤال الطبيب عن هذه الامور ؟ .. لقـد تركته يقودها وهى تشعر بضعفها وعجزها بعد أن هجرتها القوى العليا التى تتحكم فى أقدارنا .. والآن ، هل وصلت الى المرحلة الاخيرة ؟ .. هل هذه نهاية الرحلة المؤلمة التى قامت بها بالامس ، أو انها ليست سوى مرحلة بسـيطة من مراحلها ؟ .. وهل تكون هذه هى المرحلة الاولى ؟

وكانت ـ طيلة الوقت ـ تسمع من حولها أصواتا بعيدة ، غير واضحة ، تملأ أذنيها .. الاصوات التى تنبعث عادة من الغابة ، فتعكر سكون الليل ، أشـبه بأصوات السلاسـل الثقيلة ، أو صـفير الريح فى الممرات الخـاوية ، يعقبهـا صراخ طائر ليلى ، أو نباح كلب فى مزرعة ما .. وكانت تلك الأصـوات الغريبة تزيدها بعـدا عن العالم ، حتى شـعرت بأنها مهجورة ، متروكة ، تائهة فى بقعة مجهولة عن العـالم المسكون !

ومر – أمام عين خيالها – عدد لا يحصى من الاشجار المتشابهة ، وكانت أشجار الصنوبر دائمة الخضرة .. أشجار الصنوبر !.. لقد صورت لها الحمى أن تلك الاشجار اصطفت حولها فى دائرة مغلقة ، وقد تعانقت أغصانها ، وأخذت تدور حولها باستمرار .. وخيل اليها أنها لن تستطيع – حتى نهاية العمر – أن تخترق هذه الدائرة الضيقة من أشجار الصنوبر ، التى راحت تدور حولها .. لن تستطيع – الى الابد – ان تذهب لتبحث عن الحبيب الغائب .. ذلك الذى كانت على استعداد لأن تدفع حياتها ثمنا للارتماء عند قدميه ، فتقبلهما وهى تقول : « اننى خادمتك ، اننى مجرد شىء حقير تملكه .. اقتلنى ، ولكن على ان تؤكد لى انك قد صفحت عنى ! »

وبكت طويلا .. اطلقت تلك الدموع التى تخفف الالم .. تركت عينيها تسكبان خلاصة الحزن ومرارته . وقبيل استغراقها فى النوم بلحظة واحدة ، رأت طيفا مواسيا يتحرك أمام عينيها .. وجه «ماريا» ، بنظرتها الودود ، وابتسامتها .. وتمثلت فى هذا الطيف – بين تلك الاشباح المزعجة التى كانت تراودها – ما يراه الانسان فى ضوء الشمس الخاطف ، الذى يظهر بين سحابتين سوداوين ، لكى يذكره بأن وراء ذلك القناع المسدل من الليل والظلام ، يوجد الضوء !

(٢) من ذكرات لويس

سان فلورى ، فى شهرى مارس وابريل :

شعرت اليوم باحساس غريب يعين مرحلة من مراحل الأزمة التى أعانيها منذ غادرت (تونيان) .. لقد حاولت أن أحدد تاريخ اليوم ، فلم يلبث حسابى أن بين أنه

لابد أن يكون اليوم الثالث من شهر مارس ... الثالث من مارس ؟ ! .. لقد مرت كل تلك الايام ، وأنا لا أزال على قيد الحياة ! .. أنا ، الشخص الذى قاسى واحتمل كل هذا ، حتى فقد الشعور بالحياة ، فى وقت ما ! .. الا ما أشد حاجتى الى ان استعرض - فى وحدتى ، وبسببها - كل ما أقاسى ! ..

أجل ، اننى أقاسى .. أتعذب ! ترى هل يقوى بشر على احتمال مثل هذا العذاب ؟.. اننى فى عاصفة .. اننى أعيش فى جو مسموم ، وانى لازداد شعورا بشخصيتى فى هذا الجو ، وازداد احساسا بأننى على قيد الحياة ، فيعاودنى الالم مضاعفا ! .. ان بقائى فى الحياة مصدر ألم حاد يأبى أن يفارقنى ، ويوشك أن يسلمنى الى انهيار عصبى ! .. ترى الى أين أذهب ؟.. بل الى أين يذهب عقلى ، والى أين تذهب حياتى ؟ ..

اننى اساءل نفسى : أأنا مجنون ؟ .. لقد أصبحت ارتاب حقا فى أننى عاقل !.. اننى أحس بأولى بوادر الجنون .. بالخوف من أن استبين كنه افكارى واركزها ، وبالميل الى أن أنطوى على نفسى ، لكى أدرس طرق تفكيرى كأننى شخص مزدوج ! .. ولا ريب فى أننى - من أجل هذا ، وتحقيقا لهذه الحاجة - جلست لاكتب مذكراتى . ولكنى - حين أعيد النظر الى ما كتبت - لا أفهم منه شيئا ! .. لاريب أنه تفكير مجنون !

. . . .

لقد كنت أشعر بالسعادة فى طفولتى ، حتى عند ما أبكي .. انني لأذكر ذلك جيدا . فعند ما كنت أبكي ، كان

هناك أمل يتجدد فى داخل نفسى ، وكنت أنتظر اللحظة التالية بلا شعور ، لكي أعوض بها الحاضر . أواه ! .. أين هى تلك الدموع الجميلة ؟ ! .. واليوم أجد نفسى فى ضعف ذلك الطفل الذى كان يبكى فى الماضى ، واننى لتنتابنى — فى هذه اللحظة — نوبة بكاء حقيقى ، ولكن الأمل قد مات فى نفسى ، فلم أعد افكر فى اللحظة التى يجىء فيها العزاء !

آه ! لو امكننى أن أنسى ! .. لكم أريد أن انسى خمسة عشر عاما من أعوام عمرى !.. أى استعباد هذا الذى يحتمله المرء من ذاكرته !

كيف وصلت الى هذا المكان ؟ .. لقد كانت ارادتى ميتة، ولست أعرف أية غريزة خفية قادتنى الى هنا .. كل ماأذكر هو أننى فتحت عينى ، فرأيت الضوء فى البلد الذى وصلت اليه ، وكان (بوردو) بلا شك .. ورأيت أحد رجال القطار يهزنى ليوقظنى ، فقد كنت نائما رغم ذلك الالم ! .. وقال لى الرجل : « ان كل الركاب قد نزلوا ، فالى أين أنت ذاهب ؟ .. وهناك يقف القطار سينطلق الى باريس ! »

باريس ؟ ! .. لقد تخيلتها فى أقصى الشمال ، كأنها الافق البعيد الذى يمكن أن أهرب اليه من الذكريات .. أهرب من اقليم (الجارون) ، فلأهرب ! ... ولم أفكر فى شىء عند اجتيازى الطريق المؤدى الى القطار الآخر ، ولكن حواسى ارتدت الى وديان الشمال ، بالقرب من (دواى) أو (ليل). هناك فقط ، أحسست أمام هذه الوديان المنبسطة ، بأننى خرجت من اسار حزنى !

وها قد انقضت على ستة أيام وأنا فى هذا المكان.. ستة أيام قضيتها فى هذه الغرفة من الفندق الريفى الصغير . ولست أجد شجاعة تمكنني من الكتابة الي « روبير » ، أو الخروج



واقترب منها جوفر ، وبدأ يتأمل وجهها عن قرب ، ثم أخذ يفحص الانتفاخ الذى طرأ على جسمها .. (ص٢١٥)

والذهاب الى المصنع حيث أعد لى مسكن ، وحيث ينتظرون حضورى .. ان مجرد دخول الخادم ــ وهى تحمل الى طعامى ــ يضايقنى ويزعجنى ، ويصور لى اننى مصاب بمرض يقرأ الناس اسمه على وجهى ! .. والواقع أن مصدر ألمى مما لايمكن الاعتراف به ، اذ كيف أقرر ــ ولو لصديق وفى ــ ان المرأة التى احببتها حتى العبادة ، طول شبابى ، وجدتها عندما تزوجتها .. آه ، هل بوسعى ان ابوح بذلك ؟ .. اننى لا أقدر على الاعتراف به ، حتى لنفسى !.. ولكم تضايقنى تلك الدموع التى تنحدر بتأثير من ضعف اعصابى ، فأتمنى لو تمكنت من اعادتها الى عينى ، بل اتمنى لو استطعت أن انتزع تلك الغدد التى تفرزها .

ولكن لا ! .. لن أخضع لذلك ، فلقد قضيت خمسة عشر عاما ، أحاول ان أروض ارادتى وانميها ، ولابد من أن أنجح فى ذلك ، ولو تهدم جسمى وفنى..وانى لاذكر نصيحة جوفر لى ، فى ذلك الصباح ، اذ قال لى : « اجهد عضلاتك وعقلك .. اعمل ، وجد فى العمل ، وسترى أن الزمن سيشفيك » ! .. والواقع أن العمل فى متناول يدى ، فمن نافذة غرفتى ألمح المصنع ، يتعالى بمبانيه ومدخنته على كل ما يحيط به من منازل .

***

رأيت الآن ان أفض ثلاثة خطابات أرسلت باسمى من هذه المدينة الى (تونيان) ، فأعيدت اليها اذ وصلت بعد أن بارحت تلك المدينة .. والخطابات الثلاثة من المهندس « ماسكلييه » ، يتساءل فيها عن سر تأخرى عن الموعد الذى كنت قد حددته للحضور ! ..

سأذهب الي المصنع ، وسأكرس لهذه المهمة الطارئة كل

نشاطى .. ليس فى هذه المدينة من يعرف سرى .. حتى ماسكليه نفسه، لا يكاد يعرف أننى متزوج.. اذن ، فلأعمل .. فلأعمل دون اهتمام بالنتيجة .. ان هذه المهمة قد تضاعف من ثروتى ، ولكنى لم أعد أحفل بالثروة ، انما أنا انشد النسيان .. ولو اننى كنت كاثوليكيا ، لوجدت اليوم حلا لحياتى ، ولأصبحت راهبا ، وراء جدران الدير ..

ويا لهذه الجدران من حاجز قوى ، يحول بين الانسان وذكرياته !

. . . .

زرت اليوم المصنع - لاول مرة - ورأيت كل شىء فيه ، من أدق الآلات الى أضخمها .. ورأيت صفار العمال والفتيات اللاتى خلعن نصف ملابسهن ، من جراء الحر الشديد .. وكان المهندس ماسلكييه يطوف معى ، ويطلعنى على كل شىء .. انه شاب من باريس ، لايهمه هذا الشقاء الذى يكتنف حياة العمال ، ولا ينظر اليهم الا باعتبارهم آلات نافعة ! .. وقد أخذ يوضح لى ضرورة تغيير طريقة العمل ، حتى يتسنى الاستغناء عن خمسين عاملا تعسا ، يكسب كل منهم فرنكين كل يوم ، مقابل تعريض حياته للتهلكة ! .. ولكننى لم أصغ اليه ، فقد أخذ ألمى يتضاءل فى هذا الوسط الجديد .. ولاحظ ماسكلييه أننى كنت شارد البال ، فأعادنى الى نفسى بهذا السؤال : « أليس كذلك يا سيدى ؟ .. ما رأيك فى ذلك يا سيدى ؟ »

وتدافعت الذكريات على ذهنى ، وفى لحظات معدودات اختفى كل شىء من حولى : المصنع ، و الآلات ، وماسكلييه .. وشعرت - كما يشعر المرء فى حلم من أحلام اليقظة - أننى مندفع الى الامام، فى طريق عودتى من قصر (مونتريج) ،

ثم كأننى واقف على مقربة من غرفتى، و «جوفر» فى داخلها، يحاول أن ينزع من كاميل سرها .. وخيل الى اننى اسمع صوتها عندما صاحت: «لويس» .. لماذا لم أدفع هذا الباب الذى كان يفصلنى عنها؟

اننى لم أر كاميل قبل أن اهجرها .. كان يجب أن أراها، ويخيل الى اننى سأفعل ذلك لو تكرر ماحدث! .. لقد قمت اليوم بمجهود كبير لأتذكر ملامحها، ومن الغريب جدا اننى لم أتمكن من تذكرها .. لم يبق فى ذاكرتى شىء من ملامحها .. لاشىء سوى صورة مبهمة، مهتزة، عادت الى مخيلتى تدريجيا، وأنا جالس الى مكتبى، فأخذت أقول لنفسى: «ان لها وجها مستطيلا، وعينين سوداوين .. ولونها ناصع البياض .. أنفها قليل الانحناء .. صغيرة الفم، لها أذنان كبيرتان، يتوارى طرفهما تحت شعرها»!.. أجل، اننى أذكر كل هذا، ومع ذلك فأنا مثل ذلك الكيمياوى الذى حلل مركبا عضويا، وعرف عناصره كلها، ولكنه لم يستطع اعادة تركيبه من جديد .. ان المقدرة التى تمكنت بها من تذكر ملامح الوجه، تخوننى الآن، فلا يمكننى استعمالها حقا. اننى مريض غريب، فهأنذا أحاول أن أتذكر وجه كاميل فلا أوفق!. وتعود الى ذاكرتى بعض مواقفها وحركاتها، فأتبين مفاتن جسمها البض، كما رأيتها فى ظرف خاص! .. كل هذا يعود الى ذاكرتى - فى بعض اللحظات - بدقة عجيبة، فأحاول الهرب منه، وأسقط مغلوبا على أمرى، منهوك القوى، وكأننى اوشك على الاغماء! .. أجل، كان يجب أن ادفع الباب!

. . . .

لماذا أفكر فيها؟.. اننى لم أعد أحبها!.. لقد تأكدت من ذلك صباح اليوم، لما حاولت - خلال ساعة كاملة -

أن أتعرف شعورى اذا قدر لى أن اسمع خبر موتها مثلا !.. لقد تبينت أن فى ذلك الموت خلاصى .. اننى أكرهها كراهية لم أشعر بها نحو انسان آخر ! .. كنت ـ فى الماضى ـ أشعر بالحزن والأسى ، اذا ما سمعت أجراس الكنائس تعلن موت انسان ما ، ولو لم أكن اعرف الميت ، أما الآن فانى أرى فى موت تلك المخلوقة راحة لى ! .. اننى اكرهها لانها داست بقدميها حلم شبابى ، وتركت فوقه بقعة سوداء مخيفة ، تشمئز منها نفسى .

بالأمس كتبت فى مذكراتى : « كان يجب أن أدفع الباب » فأى جنون هذا ؟.. لو كان الباب ـ الذى فصل بينى وبينها ـ هنا ، لتركته ولم أقترب منه ، بل لأحكمت رتاجه !

ترى ماذا تفعل هى ، فى هذه اللحظة ؟ .. هل تتألم هى الاخرى ؟ .. من العدل أن تلقى نصيبها من الالم ، وألا أكون أنا ـ وليس لى فى الجرم يد ـ أشد الناس تعاسة وشقاء !.. هل تتألم هى الاخرى ، أو تراها قد نسيتنى ؟.. اننى أشعر فى داخل نفسى برغبة غامضة فى ان لا أنسى ، وأحمد الله على أن هذه الرغبة ليست منبعثة عن الحب ! .. انها الانانية الثائرة تطالب بأن يكون الجرح متماثلا عند الجانبين !

***

هذه أيام العمل ، والاجهاد العقلى ، والتعب الجثمانى .. وقفات طويلة بين الآلات .. اننى أبذل جهدا كبيرا لأشغل بالى عن همومى .. وقد اقتضت بعض المشكلات الفنية ، ان امكث مع « ماسكلييه » خمس ساعات كاملة ، قام خلالها بكل العمليات المطلوبة .. ان هذا الرجل يتركب من عظام وعضلات فقط ، وهو ـ منذ تخرجه فى مدرسة

« السنترال » - يعيش فى هذه البقعة من الارض ، التى يثير فيها نمو شجرة واحدة اهتمام الناس ، حتى ولو كانت هذه الشجرة عارية من الاوراق والثمار .. ولم ير بجانبه - طيلة هذه المدة - غير العمال والعاملات ، وهو يعاملهم بشدة ، ويقوم وحده بكل شىء ، دون أن يساعده أحد بالمرة .

ولقد سألته : « ألا تضايقك وحدتك هذه ؟ » ، فبدا عليه العجب ، وقال : « اننى لست وحيدا البتة ، فانت ترى الناس من حولى ، يزعجوننى طول اليوم » .

ان كل أمله هو أن يحصل على المال ، حتى يتمكن من شراء نصيبى فى هذا المصنع .. ولن يتزوج بعد ذلك ، بل سيظل - طول حياته - ينتج خيوط الغزل فى (سان فلورى) . وسألته : « ألم تحب امرأة فى حياتك ؟ » . فأطلق ضحكة ملؤها الاحتقار ، وأجابنى : « نعم ، اننى أحب كلما ذهبت الى مدينة (أواى) ، أو الى باريس ، ووجدت من وقتى متسعا لذلك » .. آه لو كنت مثل هذا الرجل ! .. لماذا لم يحولوا بينى وبين كل علم آخر غير الحساب ، حين كنت صغيرا ؟ .. كان يجب أن يحال بينى وبين كل كتب غير كتب الجبر والرياضة ، فهذه وسيلة لاراحة الاطفال واسعادهم !

ثارت الريح على هذا السهل الممتد حول الفندق ، حتى ليكاد المرء يصاب بالعمى من الغبار الذى يملأ الطرقات ، وهو غبار أشبه بشظايا الماس فى صلابته ! .. ووقفت أرقب خروج العاملات ، وقد اسبغت كل واحدة اطراف معطفها الصوفى على عنقها وذراعيها العاريين .. كم يؤلمنى هذا الجو القاسى .. لقد تلاشت آثار الربيع ، والسماء ترعد ، وقد شحب لونها حتى أصبح منظرها يثير الاكتئاب فى النفس !

.. ولكن هذه العتمة ، وذلك النور الكهربائى الضعيف ، الذى يعكس الاشياء يكادا يبعثان بالسرور الى قلبى .. ما اشبهنى بذلك الملك الذى جاء ذكره فى احدى روايات شكسبير ، اذ قال بعد أن أصيب بالجنون ، وفاجأته العاصفة ـ وهو يهيم فى المنفى ـ فطرب لها : «هبى أيتها الرياح ولتنشق الارض ! »

. . . .

انى بدأت أشفى شيئا فشيئا ، وقد أخذ عقلى يضىء ، ويمكننى أن أفكر فى الماضى دون أن يصيبنى الكثير من الالم .. ان كل ما اشعر به الآن هو حقد صامت ، يصحبه احساس ملؤه الالم ، لأن حياتى بعد اليوم أصبحت عديمة النفع .. الى أين أذهب بهذه الحياة المجدبة ؟ .. اننى لم أعد آمل فى شىء ، ولم أعد أرغب فى شىء .. اننى اشعر بأن الراحة تنحصر فى أن أكرس نفسى لعمل الخير للفقراء ، ولكننى لا أقدر على ذلك ، فان الحياة لم تف بوعدها لى !..

أهو الهدوء قد بدأ يعود الى ، أو أنها الاستكانة تريد أن تغزو نفسى ؟ .. لا أشعر الا بأسف من ناحية الماضى الميت، يصحبه شعور بالعزاء والنسيان التام .. لا ، بل ان هذا كله ليس الا نوعا من الألم !

بينما كنت أتنزه فى ساحة المصنع ـ فى هذا الصباح ـ فاجأت غراما عنيفا .. الفتاة من العاملات ، وتبلغ العشرين من عمرها .. والشاب من العمال ، ولا يكبرها سنا بكثير .. وكان يحيطها بذراعه اليسرى ، فى حين رفع رأسها بيده اليمنى، وراح يقبل عينيها وفمها حتى عنقها بحماس الشباب .. وكانت هى مستكينة له ، وقد تخاذلت ذراعاها فامتنعتا عن الحركة ، واغلقت عينيها .. وبلغ من وجدهما أنهما

لم ينتبها لوجودى ، فتركتهما مسرعا .. وهكذا يستمر الرجال من حولى فى حبهم ، وهكذا تستمر الحياة فى دورتها حول حياتى المعلقة الموقوفة .. أواه ، اننى أتألم ، اننى أتألم !

كلا .. اننى لم أشف . لقد كذب « جوفر » حين ذكر أن العمل سيهدىء من روحى .. ها قد مضى على نحو شهر ، وأنا أعمل واحاول — كل يوم — أن ادفع نفسى الى الاعتقاد بأننى تعزيت ! .. بل اننى لأكتب فى مذكراتى انى قد سلوت ، وانى أقوى من الألم ، متشبها بهؤلاء الأطفال الذين يشرعون فى الغناء — اذا مروا بجهة موحشة مظلمة — حتى يشجعوا أنفسهم على السير !.. لقد حاولت أن أضحك بالامس ، فارتعبت لضحكتى ، وخالجنى ذلك الاحساس الذى يشعر به الانسان اذا رأى جثة ميت أصابها النتن !

. . . .

لا ، لن أكذب على نفسى بعد الآن ، فلقد جاهدت وحاولت أن أنتصر ، ولكننى هزمت فى النهاية ، وأصبحت معدوم القوى كما كنت قبلا .. اننى لأحس — وأنا أعترف لنفسى بذلك — بشعور جديد .. انه السم الذى بدأ يسرى فى أعصابى . لقد قلت لنفسى هذه الكلمة الآن ، وهأنذا أسجلها : « اننى لازال أحب تلك المرأة » !.. نعم ، اننى احبها ، أو — على الأقل — أشتهيها !.. كل جسمى يدعوها اليه ! .. اننى اقضى ليالى فظيعة فى هذه الآونة !.. أواه يا للجسد المعذب التعس !

تحاصرنى الآن مراحل حياتنا المشتركة ، وما كان أقصرها! .. انها تحاصرنى حصارا يكاد يخرجنى عن حدود العقل .. ان الحياة تملأ تلك المراحل ، حتى لقد شعرت بالرعدة

تسرى فى جسمى وتصل الى رأسى أحيانا .. هل هى قريبة منى ، تلك المرأة ؟ .. لكم يخيل لى ذلك ، حتى لأبسط ذراعى — فى بعض الاحيان — وأتحسس ما حولى ، لكى اتأكد انه لا يوجد حولى غير الظلام الفارغ ! .. قد يكون الجنون قادما .. فى الطريق !

***

لقد كرست كل شبابى من أجل « كاميل » .. يخيل الى اننى — منذ رأيتها لأول مرة ، عندما كنت غلاما — عرفت كل شىء عن الحب وأسراره ! .. لكم كانت طاهرة نقية جاهلة ، فى ذلك الوقت .. لقد كانت روحها الطاهرة البريئة تطل من عينيها الجميلتين ، خلال نظرتها المفعمة بالاستقامة والثقة .. وأنا — الذى كنت أقل طهرا منها — كنت ألوم نفسى اذا قبلتها ، فكانت تضحك منى ، وكانت تلهب عنقى ووجهى بقبلاتها ، بل انها كانت تقدم لى شفتيها حتى أضع عليهما شفتاى ، فكنت اتورع عن هذا العمل فى استحياء !

لا أريد الا أن أفكر فى الفتاة الطاهرة التى احببتها — فى الماضى — حتى العبادة ، والتى ماتت بالنسبة لى .. ماتت منذ غادرت مدينة (تونيان) للمرة الاولى .. ماتت وعمرها خمسة عشر عاما !

وبعد .. لقد فزت بها — على الرغم من كل شىء — وامسكت بها بين ذراعى ، وقبلت فمها ، وسمعت منها شهقات الحب ، وحققت حلم شبابى .. كم رجلا يمكنه أن يقول ذلك ؟ .. لقد كان الوهم قصيرا ، ولكن .. هل السعادة غير الوهم ، كما يقول « فرتر » ؟ .. ثم انها كانت تحبنى .. اننى على يقين من هذا ، وليس على الا أن أستثير ذكرياتى ، لأجد ألف دليل ! .. لقد احبتنى بكل

روحها وكل جسدها وكل عواطفها . أليس الواقع هو انها اخفت عنى الحقيقة ، لأنها كانت تحبنى ؟

نعم ، لقد فزت بها .. الا أن هناك رجلا آخر فاز بها قبلى .. رجلا آخر قد استثار غرائزها الاولى . لقد أحبتنى ، ولكنها اعادت على مسامعى كلمات الحب التى قالتها لرجل آخر .. يا له من شىء تشمئز منه النفوس !.. اذن ، فأنا لم أفز بها وحدى .. لم أفز الا بجسد ملوث مدنس ، لا برء له بعد أن ترك فيه الآخر شيئاً من حياته .. آه لو كان ذلك الرجل حيا ! ..

لقد مات ، ولكنه ما زال مسيطرا عليها..ها قد مضى أكثر من شهر منذ فارقت كاميل .. ولعلها قد نسيتنى ، ما دام قلبها سريع التقلب بهذه الدرجة . ولكنها لا تملك أن تنسى الآخر ، على الرغم من موته ، فان البذرة الخفية — التى زرعها — ما زالت آخذة فى النمو ، وستثمر قريبا ! .. ان قلب ذلك المخلوق الصغير — الذى لايحس — يخفق فى أحشاء أمه ، ويطلب حقه من الحياة !

. . . .

أعتقد أن هناك رجالا يقبلون أن يكون موقفهم من الجماعة مثل الموقف الذى سببته لى خيانة هذه المرأة..هناك رجال يتزوجون من الأرامل ، ومن نساء أنجبن أطفالا من غيرهم . ولكن الرجل الذى يقدم على الزواج من أرملة ، أو من امرأة رزقت بولد من غيره ، يكون على ثقة — فى العادة — من انها تبادله مثل حبه ، وهكذا يعيش الاثنان سعيدين ..

. . . .

انه جبن ! .. جبن ! .. لقد قرأت الكلمات التى سطرتها بالامس، ورأيت أننى لم أضف اليها شيئا من عندى، لأننى لم

أجسر على مجرد التفكير فى شىء فاضح كهذا ، يستحق الاحتقار .. لا شك فى اننى كنت ابغى أن أقول : « ما دام هناك رجال يقبلون ذلك ، فلماذا لا أفعل مثلهم ؟ .. لماذا لا أعود الى زوجتى ، وأطلب منها أن تكون لى من جديد ؟ »

الى هذه الهوة قد سقطت ، بعد أسابيع من الجهاد والوحدة ؟ .. لقد جربت العمل فعافته نفسى ، ولم يشفنى الزمن مع عذابى ، مع انى أبتعدت عن ذلك المكان .. وهاأنذا ، بعد أن انقضى الالم الذى شعرت به فى الساعات الاولى ، اجدنى منساقا الى مرحلة الرغبة الحادة ، والى الشعور بالحاجة الى قرب تلك المرأة ! .. اننى كلما تذكرت كيف فزت بكاميل فوزا منقوصا، شعرت بنوع من الاشمئزاز يكاد ينتزع قلبى .. وفى اللحظة التالية ، تعاودنى الشهوة فأنسى كل العار ، ولا أذكر غير اللذة .. ان ارادتى ليست الا آلة مسخرة ، وهى بالتالى ألعوبة فى قبضة أعصابى !

لكم أشعر بأنه لو استمرت حالتى هكذا ، فلن ألبث ان انتهى : اما الى الجنون ، واما الى الانتحار ! .. فلستأقوى على مجرد التفكير فى العودة الى تلك المرأة ، كما أن حياتى — فى هذه العزلة — لن تلبث أن تفوق احتمالى وطاقتى . وقد بدأ الناس فعلا ينظرون الى وهم فى شك من أمرى .. بل ان « ماسكلييه » — الذى أتناول طعامى معه — يلقى على دائما نظرات فاحصة مستفسرة ، وكأنه يقول فى نفسه : « ان هذا الرجل مجنون »

لم أعد أشعر بالزمن أو بفصول السنة.. قد نكون الآن فى فصل الربيع ، ومع ذلك فالسهل مستمر فى ظلامه واجدابه من المزروعات ، ولكن الازهار قد بدأت تتفتح وتظهر خلال نافذة غرفتي بالفندق .

. . . .

انني لا أزال أحبها ، واذا غابت عنى ذكراها لحظة ثم عاودتنى ، فانها تثير الشجن فى نفسى ! .. ليست طفلة الزمان الغابر هى التى أحبها ـ كما حاولت أن اوحى الى نفسى ـ بل تلك المرأة الناضجة للقبلة .. تلك التى أخذتها بين ذراعى وهى مدنسة ، ولكنها كانت فى ذروة جمالها الرائع !

الآن تذكرنى أعصابى الخائرة بكل شيء فيها .. ووجهها الذى كان يروغ منى اذا ما حاولت أن اتذكره ، يلاحقنى الآن .. انني لأتمثلها نائمة ، وقد أسدلت أهداب عينيها .. لا أرى غير وجهها المائل ، ونهاية ذقنها .. يا لغيظى وحنقى ! .. انها فى مكان ما ، وفى امكانى أن آخذها ، ولكنى لا أريد ، لا أريد !

انني استيقظ فى جوف الليل ـ احيانا ـ دون سبب الا الحاجة الى رؤيتها، كما اعتقد . فأنا لا أكف عن التفكير فيها، حتى فى نومى .. فاذا ما استيقظت ـ فى بهيم الليل ـ بدا لى كل ما فى الحجرة مبهما .. وأرفع رأسى قليلا ـ وأنا فى الفراش ـ فأرى «كاميل» مستلقية الى جانبى ، يعلو وجهها بعض الشحوب غير العادى ، وهى عديمة الحركة ، شديدة السكون فى نومها ! .. لم ار فى حياتى نوما كهذا ، فهى تكاد تشبه التماثيل ! .. واشعر ـ فى جيشان العاطفة ـ بحنين جارف، واتذكر انها زوجتى، فأهمس بصوت واهن: « انني أحبك . انني أحبك ! » .. وكأن قوة سحرية غريبة ـ تتولد عن الرغبة ـ تفتح عينى الطيف .. واخال أن « كاميل » تبتسم لى ، وترفع الغطاء بيديها ، لكى تمدهما الى !

آه ، يا لصفاء لون ذراعيها ، ويا لرائحتها الذكية الفريدة! .. انها لا تشبه أى عبير أعرفه . لقد كانت مثل اريج الزهر طبيعى .. بل انها نوع من رائحة الحب !

الى أين أذهب .. والى أين تذهب ارادتى .. والى أين يذهب عقلى ؟ .. هاأنذا أستعيد ذكرى هذه الرؤيا ، فيا للجبن ! ..

ليس فى هذا ما يشرفنى اطلاقا ! .. أأنسى أن حياتى الى جانبها كانت دعارة طويلة ؟ .. يا له من شىء تشمئز منه النفوس ، ويحمر له وجه الانسان خجلا !

هذا ما يجب أن أصارح بهنفسى عند ما أفكر فى الامر .. أجل ، ان كل عناق تبادلناه ، بل كل قبلة شابها شىء من الدنس .. دنس كفيل بأن يجعل كل من يسمع بهذه القصة يبتسم ساخرا ! .. يجب أن أكرر هذا القول لنفسى ، حتى يخمد العار والخجل أنفاس الرغبة الجامحة !

. . . .

اننى لم احمل منها تذكارا واحد .. لاشىء ، لا خصلة من الشعر ، ولا أثر يذكرنى بها ، ولا صورة .. لا شىء ! .. لقد كانتفى غرفة والدها صورة تمثلها عندما كان عمرها خمسة عشر عاما ، أى فى السن الذى فارقتها فيه . تلك هى الصورة التى كان يجب أن أحتفظ بها ، فقد كانت كفيلة بأن تحصر فكرىفى الصبية النقية ذات الجسد الطاهر الذى لم يمس .. الصبية التى لم يكن يراود خيالها أى خاطر دنس !

آه ، لو كنت قد تمكنت من الفوز بها وهى على تلك الحال !.. آه ، لو كان قد قدر لى أن استمتع بأولىشهقات ذلك الفم الزاخر بالطهارة .. لقد سبب لى الحلم — الذى

مر بخاطرى فى هذه الساعة ـ اضطرابا عظيما ، حتى أننى لا أجد كلمات أعبر بها عما احسست به !

ولكن ترى ماذا فعل الشقى حتى فاز بها ، فى طهرها وبراءتها ؟ .. هل كان يحبها ؟ .. وماذا صنع ؟ .. وأين تمكن من ارتكاب جريمته ؟ .. وهل سلمته نفسها دون مقاومة ودون صياح ؟ .. لا ريب ان ذلك كله تم فى موعد اتفقا عليه من قبل .. وارتكبت تلك الفعلة الشنعاء على مقربة من والدها ، وهو لا يرى شيئا !

لو كانت تحبنى لما قبلت أن تنفصل عنى بهذه السهولة .. ألم يكن واجبا عليها أن تقوم الى فى الحال ، وتحاول أن تبرر لى موقفها ؟ .. ولكنها لم تفعل ، بل تركتنى أسافر ، ومنذ ذلك الوقت لم ترسل الى خطابا أو كلمة .. ربما كان الشهران المنصرمان كافيان لمحو ذكراى من نفسها ! .. ثم انها ستصبح أما عن قريب ، ولا شك أنها تفكر فى الطفل وحده !

رباه ! .. انك موجود ، وقد أمنت بك ، فدعنى أموت !

. . . .

سيجىء يوم أموت فيه .. أنا وهى . سيستحيل جسدى وجسدها موادا أولية متناثرة ، بعد ان تتلاشى الرابطة التى تجمعها .. رابطة الحياة . وهكذا تختفى الرغبة ، كما يختفى الحب ، مع انتهاء الحياة ، وستتشتت تلك المواد التى نتكون منها ، والتى يبحث بعضها عن بعض ، وتتوق الى الجمع بين نفسينا وجسمينا .. ستتشتت هذه المواد ، وقد تتقمص اشخاصا آخرين ثم تعيش تحت سماء أخرى ، وفوق ارض أخرى .. وسيجمعها الحب من جديد ، ويبعثها

على التقرب والاندماج الى أن يلحق الموت بالغرام الجديد ، وهكذا .. فلم يتكرر هذا ولاى غرض من الاغراض ؟ .. أى اله يهتم بهذا التتابع ؟ .. يا له من عبث يسير وتيرة واحدة ، ويشبه عبث الطفل الذى لا يغير اللعبة التى يتسلى بها !

واذا كانت الحياة لعبة متواترة متتابعة ، فلماذا نتمسك بمبادىء الآداب والاخلاق والواجب ؟ .. وما دام كل منا يحب الآخر ، فلماذا لا نعود الى الاتصال ببعضنا ؟ .. ان فى وسعنا أن نهرب من الناس ، ونرحل وحدنا .. وسأقول لها اذا ما حاولت أن تبرر موقفها : « أسكتى ! .. لا تتكلمى ولا تعتذرى .. اننى أريد أن احظى بك ، وانت على حالك ! .. فيما يهمنى ما قد فعلت فى الماضى ؟ .. حتى لو كانت روحك خائنة ، فانى ألمس الاخلاص فى جسدك .. انه لم يكذبنى !.. اننى ارغب فى جسدك لا فى روحك .. فردى الى جسدك ! » .

. . . .

انتهى عملى فى هذه المدينة ، وهاأنذا لا أملك شجاعة تساعدنى على السفر .. ياله من ميل غريب ، ذلك الذى يربط الانسان بتلك الجهات التى تألم فيها وبكى ! .. هذه الغرفة غير المريحة التى ضمتنى وأنا فى شدة يأسى ، هذا الفراش الذى تقلبت فيه مسهدا ، اسكب وابلا من دموعى ، وهذه المائدة التى سجلت عليها أحزانى من وقت لآخر ، بل وذلك الافق الشمالى ، وذلك السهل الفاحم الحزين ، والسماء البيضاء ، والشوارع الطويلة التى تزخر جنباتها بالاولاد .. كل هذه وتلك أصبحت اطارا ملازما لاحزانى ،

ولن أجد اطارا آخر يمكن أن يتفق أكثر من هذا مع المجرى الذى تسير فيه ارادتى وحياتى !

ان «ماسكلييه» سعيد ، فقد حصل منى على كل مايريد ، وسيتمكن من أن يدعم المصنع ويضاعف من مكاسبه، وبالتالى من مكاسبى أنا .. ولكن حياته لن تتغير ، وسيقضى كل أيامه بين مكتب يملؤه الدخان والنماذج ، وبين معامل التحليل ، وفى جو ممتلىء بالعرق الانسانى وبخار الماء ، فأية حياة هذه ! .. ولن يلبث ان يموت اذا حان اجله ، والله وحده يعلم أين تذهب نقوده بعد ذلك .. انه ليس الا آلة من الآلات البشرية المعدومة الشعور بالحياة ! .. آه ، اننى أفضل أن أظل على ألمى ــ كما أنا الآن ــ من ان اكون معدوم الشعور مثله !

والآن ماذا أصنع؟ .. اذا كان كسلى الجسمى وضعف ارادتى يأمراننى بالبقاء هنا، فان فكرى يدفعنى الى السفر والرحيل والقيام بمحاولة ما .. فلا العمل ولا الوحدة قد أفلحا فى شفائى .. هل أقوم بمحاولة جديدة أم أعتزل كل شىء ؟ وآاسفاه ! .. ان كل ما حولى يسوده الظلام ، ولم يسبق لى أن رأيت نفسى أكثر غموضا مما هى الآن .. ماذا أريد ؟ .. اننى لاأعرف ! .. اذا فكرت لحظة فى العودة الى كاميل ، فان الاشمئزاز لا يلبث ان يملأ قلبى ، فأنزع هذه الفكرة من نفسى ، كما لو كنت أتقيأها .. وبعد أن أؤكد لنفسى أنه ليس ثمة ما يضطرنى الى ارتكاب هذه النذالة ــ نذالة العودة اليها ــ فاننى لا ألبث أن أشعر بجوع اليأس المحروم يقطع احشائى !

لقد كنت معتدا بقوتى عند ما حاولت أن احارب ذكرياتى بمفردي. وآآسفاه، اننى عاجز عن كل شىء !.. اننى لاأساوى

شيئا . لقد هزمت وغلبت على أمرى وأضنانى التعب .. لقد كنت أعرف فى الماضى كيف ارغب ، وماذا أشتهى ، ولكن .. يخيل الى ان مورد الرغبة ذاته قد نضب وجف فى هذه المرة !

. . . .

٢٢ أبريل

عزيزى روبير

اننى تعب ، مريض ، منهك القوى .. اننى ألجأ اليك كأعز صديق ، وكطبيب .. انه شقاء عظيم ، بل انه أعظم شقاء يمكن أن يحل بى ، فقد ألقى بى بعيداً عن أسرتى الجديدة . وليس فى طاقتى أن أقص عليك القصة كلها ، ولذلك أرجوك أن تقرأ هذه المذكرات التى أرفقتها بخطابى هذا ، والتى سجلتها بين تقلبات عواطفى ، وخلال الصدمة التى تلقيتها، منذ أكثر من شهر..وحين تنتهى من قراءتها ، ستكون قد عرفت كل شىء على ما أظن ..

أما أنا فليس لى أمل فى أى شخص غيرك !

« لويس »

(٣)

ما ان أرسل « لويس لوت » الى «روبير» تلك الصفحات ــ التى تضمنت اعترافاته ــ مشفوعة باستغاثته البائسة ، حتى تطورت الحمى الى مرحلة من الضعف وانحطاط القوى، نتيجة للمجهود العظيم الذى بذله وهو يناضل وحيداً .. ولكنه اضطر ــ فى النهاية ــ الى التسليم بالخذلان .. وما كان أشبهه بذلك الغريق الذى يتعلق بصخرة ، ثم يشعر فى

النهاية بتخاذل أعصابه وعضلاته ، ويعرف أنه سيضطر بعد لحظات الى ترك الصخرة ـ التى يتشبث بها ـ ليغرق ويموت !

ان لخذلان الارادة لذة ، وخاصة حين يشعر الانسان به . فقد أهمل الشاب كل شيء مدة ثلاثة أيام متتالية ، وساعده الضعف على التخلص من الافكار الشريرة ، اذ لم يعد يقوى .. حتى على رعاية هذه الافكار . ولكن القلق بدأ يعاوده فى اليوم الثالث . فان روبير لم يحضر ، ولم يرد عليه .. ترى أين هو الآن ؟ .. وما العمل اذا هو رفض الحضور تلبية لندائه ؟.. بل ما العمل اذا كان قد مات أثناء رحلته ؟ ! .. ان خطابه الاخير ينبىء عن سفره بالبحر ، فى فصل العواصف والانواء .. ألا يحتمل أن يكون قد غرق ؟

تكاثرت الفروض على ذلك الفكر المشتت المضطرب . ووقر فى نفس لويس أن صديقه « روبير كلاييس » قد يمتنع عن الحضور لسبب ما ، فقال فى نفسه : « لو صح هذا ، فليس هناك بعد ذلك ما يربطنى بالعالم ويضطرنى الى الحياة ! » .. وأخذ هذا التيار الجديد ـ من الأفكار ـ يتبلور عنصراً من عناصر شقائه .. ولكنه شقاء حول مجرى أحزانه .. وظل طيلة أربع وعشرين ساعة يرى فى المستقبل شيئا يعذبه أكثر مما عذبه ماضيه كله .

على أنه ـ لحسن الحظ ـ تلقى فى منتصف اليوم الثالث، رسالة برقية من صديقه روبير، يخبره فيها بأنه فى مرسيليا، وبأنه قادم بقطار باريس..ووصل روبير ـ فعلا ـ فى صبيحة اليوم التالى .

***

قال فيلسوف أجنبى ، انه ليس فى العالم أجمل من صداقة شابين عاشا حياة مشتركة ، فترة من طفولتهما !.. والواقع ان للحب ملاذا تفوق ملاذ الصداقة ، ولكن الانانية هى العنصر القوى فى كيان الحب .. أما الصداقة ، فعلى النقيض من هذا ، اذ انها تتجرد من النفع الشخصى ، ومن ثم فهى اعظم مظاهر التعاطف الانسانى .. وقد أيقن لويس من أن الصداقة أرفع من الحب وأسمى مقاما ، عند ما قذف بنفسه الى ذراعى صديقه ـ وقد اشتد تأثره ـ وأحس بجبهته وهى تستند الى صدر قوى ثابت ، وبيديه تشد عليهما يدا صديق ، بل أخ .. وراح صوت الطبيب الرقيق يغمغم فى اذنه : « كم قاسيت يا عزيزى لويس .. ما كنت أظنك شقيا أبدا ! »

وكان التهدج يكاد يخنق الكلمات فى حلقيهما .. والواقع ان مشاعرهما كانت أعظم من أن تعبر عنها كلمات.. حتى اذا هدأت نفساهما ، جلس روبير الى جانب لويس وقال له : « ياعزيزى لويس .. لقد وصلنى خطابك عندما كنت فى مرسيليا ، ولو انك تأخرت عن ارساله يوما واحدا ، لما قدر لى أن أستلمه ، اذ كنت راحلا الى تونس ، من جديد .. وقبل أن أشرع فى قراءة مذكراتك ، بادرت بالحضور اليك، ففى وسعى أن أعترف لك اليوم بأننى كنت أعرف الحقيقة منذ كنا فى (نيس) ، اذ اعترفت لى كاميل بكل شىء » .

وصاح لويس : « اذن فقد كنت تعرف الحقيقة ؟.. لقد حدست ذلك ، ولكننى لم أكن أقوى على تصديقه . لماذا لم تتكلم اذن ؟.. لقد خنتنى وخدعتنى أنت الآخر ! » .. فأمسك روبير بيدى صديقه ، وقال له : « كم كنت ألومك

على هذا الاتهام ، لو أنك وجهته الى فى أى وقت آخر !.. نعم لقد خدعتك ، اذ احتفظت بذلك السر ، وكنت أنوى أن أحتفظ به الى أن أموت لو لم تسبقنى الحوادث .. وكنت ستجدنى فى (تونيان) عندما يحين وقت الوضع .. لقد كان هذا متفقا عليه بينى وبين زوجتك ، اذ كنت قد عزمت على ابعاد الدكتور جوفر عن ابنته ، ثم أقنعك بعد ذلك - معتمدا على ثقتك - بأن زوجتك قد وضعت بعد سبعة أشهر من زواجها .. وليس هذا نادر الحدوث ! » ..

فقاطعه لويس قائلا : « صه !.. ما أحسبك كنت تنوى أن تكذب هذه الكذبة المروعة .. كيف هذا ؟.. أكنت تريد أن تجعلنى أعتقد أن الطفل الذى ستلده هو ابنى ؟ .. ولربما كنت صدقتك ! .. آه ، ما أبشع هذا ! »

ورمقه روبير فى حزن ، ثم قال : « أجل ، كنت أعتزم أن أرتكب كل ذلك .. ولا تظن أننى اخترت لنفسى اسهل الطرق . لقد كان هناك حلان : الاول هو الذى اختاره الدكتور جوفر ، اذ انضم اليك ضد ابنته ، وصمم على معرفة الحقيقة ، مهما يكلفه ذلك من ثمن .. ثم أخبرك بها ، وها أنت اليوم ترى النتيجة .. ها أنت اليوم متعب محطم مريض ، ليس لك أمل فى شخص غيرى ، أنا الذى لا أملك - مع هذا - القدرة على شفائك .. وها هو ذا قد فرق بينها وبينك فى قسوة بالغة ، وهى التى تحبك .. لاشك فى أنها لا تقل عنك الآن مرضا وتعاسة .. انها فى قبضة رجل يعتقد ان مشاكل الحياة يمكن أن تحل كما تحل مسألة الجبر .. ومن يدرى ربما تكون قد ماتت ! »

وصرخ لويس ، وهو يهب واقفا : « ماتت ؟!.. ومن أين عرفت ذلك ؟.. هل سمعت شيئا من أخبارها ؟ ! »

***

ولاحظ « روبير » الاثر الذى خلفته كلماته الاخيرة ، فقال : « كلا ، ان كل ماعرفته هو أنهما غادرا (تونيان) .. الأب وابنته . والناس هناك يعتقدون أنهما لحقا بك فى احدى مدن الشمال .. هذا ماكتبه لى بول دلكومب » ..

ثم استطرد روبير وهو لايزال مهتما بدراسة لويس : « أما الحل الآخر ، فكان يتلخص فى أن تظل جاهلا كل شىء .. ولو حدث ما يثير شبهاتك – وكنت مكان الدكتور جوفر – لتصرفت كما تصرفت فى (نيس) ، حين استجوبت زوجتك وعرفت أن تاريخ الجنين يعود الى خمسة أشهر ، ولكننى مع ذلك أخبرتك ان كل شىء عادى .. ولو نجحت خطتى لكنتما اليوم تعيشان فى اتحاد ووفاق وسعادة ، كما كان الحال من قبل ، ولنسيت هى الماضى بسرعة ، بل لانتهى الامر باعتقادك ان الطفل هو ابنك أنت .. وما يدفعها على ذلك سوى حبها لك .. ذلك الحب الذى لمسته بنفسى .. ثم انكما خليقان بأن ترزقا بأولاد آخرين ، وبأن تستمر حياتكما فى سلام .. كم من زيجات تمضى سعيدة ، معأنها تعيش تحت رحمة مثل هذا السر ! »

ولم ينقطع « روبير كلاييس » – وهو يتكلم – عن تثبيت نظره فى وجه صديقه ، فرأى الشحوب يسود هذا الوجه ، بعد ان تضرج خجلا .. وكانت عينا لويس – المحتقنتان بتأثير الحمى – تومضان عند بعض كلمات .. وفتح فمه – عدة مرات – كأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه لم يقل شيئا ، بل آثر السكوت .. ولم يسعه – بعد ان انتهى صديقه من الكلام – الا أن يبكى فى هدوء ، بينما واصل الدكتور روبير

حديثه ، وكأنه لايرى دموع صديقه : « نعم .. هذا ماكنت أريد أن أفعله ، ولكن الحوادث سبقتنى، وسارت الامور فى طريق آخر .. وهأنت قد انفصلت عن زوجتك ، بسبب اخلاص والد زوجتك ونزاهته .. وأعتقد أن الانفصال نهائى فى اعتبارك .. أليس كذلك ؟ »

وقفز لويس عن مقعده ، ومسح عينيه بحركة سريعة، ثم أجاب مدفوعا بالكرامة الشخصية : « بلى ، انه انفصال نهائى .. أنت ترى أننى لا آسف على شىء . ان صداقتك لى قد جعلتك تضل الطريق السوى ، ان هناك أسرارا يجب على المرء أن يعرفها، ولو تسببت معرفتها فى موته .. ومن الأفضل ألا ينعم الانسان بالسعادة، اذا دفع ثمن سعادته مثل هذه الكذبة ! » .. فأجاب روبير : « فليكن ماتريد .. اننى لاأطلب منك أن تفكر على طريقتى ، فأنت رجل كامل العقل ، وأنت أدرى بما تريد .. ثم ان ماوقع قد تم ، ولا سبيل الى الرجوع فيه .. ان الموقف دقيق ، ومما يؤسف له أن ارادتك ليست قوية مثل حكمتك وأفكارك . انك قد جربت الوحدة والعمل ، ولكنك أدركت انهما لم يساعدا على شفائك .. فهناك نوبة من الجبن والنذالة تهاجمك ــ من حين الى آخر ــ وقد التجأت الى كطبيب لأعالج ارادتك المريضة ، مدفوعا الى ذلك بيأسك من النضال وخوفك من الانهيار .. أليست هذه هى الحقيقة ؟ »

وأجاب لويس : « بلى .. اننى أريدك أن تعالجنى حقا ! » . وهنا أمسك روبير بيديه وقال له : « حسنا ياصفيرى لويس، لقد أصبت فى التجائك الى ، وسنقف معا ــ منذ الآن ــ جنبا الى جنب فى هذا النضال .. ولكنك تعرف أن المريض يجب أن يطيع طبيبه ويثق به » .. فقال لويس : « أصبت،

وانا أسلم نفسي اليك .. انني أقدم اليك قلبي وجسدي، وقد اضناهما التعب .. انك ترى انني لا أبكي، وفي وسعي أن أكون قويا .. فماذا تريد مني ؟.. سوف أطيعك طاعة عمياء ! »

ــ سأعود بك الى باريس، وستبقى معي .

ــ ولكن .. صديقتك لوسي .. ؟ !

ــ ان لوسي قد عادت الى مسكنها القديم، بشارع (فريدلند)، ولن نسكن معها .. وفي امكاننا أن نستأجر مسكنا في (فيلا لامرتين)، بشارع (بلزاك) .. فهناك مساكن جميلة جدا، تطل على الشارع .. انني أعرفها منذ زمان طويل !

***

وانتهى ذلك اليوم بالاتفاق على السفر . وراح كل من الطبيب والمريض يراقب الآخر .. كان لويس ينظر باعجاب وحب الى ذلك الوجه الذي لوحته شمس افريقيا حتى غيرت من لونه ولون شعره الطويل .. وكان روبير قد أطلق لحيته ــ أثناء زيارته لتونس ــ وانطبعت ابتسامة ثابتة على شفتيه، كما انبسطت أساريره وظهرت أسنانه ــ من خلال فمه ــ بيضاء كالعاج، وهي كبيرة الحجم متلاصقة . وكان الصفاء يطل من عينيه الهادئتين، وقد تجلت فيهما نظرة تدل على الثقة والجد، وتدل على ان الرجل قد ناهز الخامسة والثلاثين من عمره، على الرغم من أنه ــ في الحقيقة ــ أصغر من ذلك، اذ أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين .

أما « روبير »، فكان يطيل تأمل مريضه، بنظرة الرجل

الذى فكر كثيرا وكشف سر الشاب الذى لجأ اليه ، وهو مغلوب على أمره .. ولاحظ ــ بحزن الام على ولدها ــ تلك الآثار الخارجية التى بعثها الألم الداخلى .. كانت التجاعيد قد بدأت فى الظهور على وجه لويس المكفهر ، كما بدأ لون شعره يتغير ، فاكتسب ذلك اللون الباهت الذى يسبق المشيب . أما عيناه ، فكانتا محتقنتين ، وقد اتسعت حدقتاهما ، وانبعث منهما بريق غريب غير عادى ، وكانت نظراتهما تتجه أحيانا ــ مدفوعة بقوة مغناطيسية ــ الى الفضاء . ومن وقت لآخر ، كانت تنبعث من صدره تأوهات يهتز لها كيانه .. واذ ذاك ، كان « روبير » يمسك بيديه ويضغطهما ، دون أن يوجه اليه كلمة واحدة . ويحاول لويس أن يبتسم ، وهو يقول : « انك تعتبرنى جبانا .. أليس كذلك ؟ » . فيجيبه روبير : « كلا .. ان هذا ليس من الجبن ، فأنت رجل قوى الارادة ، بل من أشجع الرجال الذين أعرفهم ، ولكن ارادتك هى المريضة !.. ان من العمال الاقوياء البنية ، من يتعاطى كمية قليلة جدا من مسحوق أبيض معين ، فتجده فى اليوم التالى خاضعا لارادة طفل صغير ضعيف .. أما أنت ، فستعود رجلا آخر ، بعدثمانية أيام تقضيها فى باريس ! »

***

لايمكن أن يشعر انسان فى باريس بالسأم ، وخاصة اذا كان قد قضى بها الاعوام الاولى ــ التى تفتح فيها عقله ــ أو شطرا من طفولته .. فان هذه المدينة الكبيرة تبدو ــ لهؤلاء الذين يعرفونها ــ جزءا لا يقتطع من حياتهم .. انها تمثل الحياة المختلطة المزدحمة الجامعة ، والنشاط الحيوى الذى يمكن الانسان من ان يرى كثيرا من الاشياء

فى وقت قصير .. انه يعيش فى وطنه ، مهما تتغير ظروف الحياة ، مادام قلبه قد نبض فيها أيام شبابه !

وكان لويس قد هجر باريس فى وقت سأم فيه الدراسة العملية والمؤثرات العاطفية ، وشعر بشدة الميل الى حياة الريف ، بهدوئها الذى تحسد عليه وبطء أيامها الخالية من القلق والمخاوف ، حيث يمكن للمرء أن يخصص كل وقته للحب كلما أحس بأن روحه ستنعم هناك براحة لا سبيل اليها فى مكان آخر .. ولقد كان لويس يعود الى تذكر باريس أحيانا ، عندما كان يقضى المساء الى جانب كاميل زوجته بسبب الامطار .. فكانت تتمثل لعينيه المنازل ذات الطبقات السبع ، والشوارع المتقاطعة ، المزدحمة آنا والخاوية آنا آخر .. وكان يخيل اليه انه يرى حلما مزعجا ، فيحول نظره – فى الحال – الى الطبيعة الجميلة المحيطة به ، وكأنها كانت تهبه سعادة خالدة .

وكأنما أرادت باريس أن تغير رأيه فيها ، وأن تبدل من نظرته اليها ، بمجرد ان عاد اليها مع روبير ! .. فما ان استقر فيها ، حتى شعر باحساس جديد ، اذ ظهر له أن المدينة الكبيرة تسجل انتصار العمل على الحب .. انتصار العقل على الجسم . وشعر فى الحال كأن العاصفة تحمله على جناحيها ، وساعده ماغمره به صديقه روبير من عناية فائقة على الاحساس بقليل من الراحة ، فاعترف – لأول مرة منذ حلت به مصيبته الكبرى – بأن اليوم قد مر بسرعة .. حتى اذا هبط المساء ، تناول الصديقان طعام العشاء وحدهما ، وجلسا فى شرفة تطل على شارع (فريدلند) ، وأخذا فى التدخين .. وساد بينهما الصمت

الطويل ، وهما ينظران الى قطاع كبير من مدينة باريس التى كانت تمتد أمامهما .. وكانت هذه البقعة من المدينة اطارا لصداقتهما منذ كانا شابين لا تزيد سن كل منهما على العشرين عاما . واذ تبادر هذا الى ذاكرتيهما - فى تلك الساعة - شعرا بألم شديد يكاد يحرق قلبيهما، كما داخلهما ما كانا يشعران به - من قبل - من سرور لاجتماعهما ، واطمئنان الى ان الصداقة التى ربطت بينهما من النوع النادر الثابت .. وأقبل كل منهما يحتضن الآخر ..

وتمتم لويس : « آه ياروبير .. كم أنا مدين لك ، اذ أتيت بى الى هنا ! » . وأدرك « روبير كلاييس » - فى تلك اللحظة - ان شفاء صديقه قد صار أمرا ممكنا . وبدأ فعلا - فى الايام التالية - يهنىء نفسه على التقدم المستمر فى صحة صديقه ومظهره ، فقد استعاد لويس شيئامن شهيته للطعام ، وأخذ يبدو عليه الاهتمام بالحياة الخارجية ، بعد أن صمم على أن يهرب من التفكير فى شخصه . وشرع فى العمل من جديد - بناء على نصيحة روبير - للانتهاء من الكتاب الذى كان الزواج قد حال دون اتمامه .. وكانت نزهات الصباح - فى الغاب - ومشاغل بعد الظهر التى تتخللها محادثات طويلة ، والمساء الذى كان يقضيه اما فى أحد المسارح أو عند لوسى .. كل ذلك كان كافيا لأن يشغله فى دور النقاهة .. أما مسألة « كاميل » ، فلم تعد موضع بحث بين الصديقين ، كأن ستارا كثيفا قد حجبها عنهما

***

ولكن ألم لويس لم يكن - لسوء الحظ - من النوع الذى تكفى الموسيقى أو جولات البحيرة لشفائه .. ولم يكن

« روبير » يجهل ذلك ، بل كان يعرف انه من هؤلاء المرضى الذين يشعرون بالالم فيعالجهم ببعض المسكنات الوقتية ، وهو يوقن من انه لابد من اجراء جراحة لشفائهم التام . لويس بعد تغيير الوسط ، قد أخذ فى النقصان بدرجة لايكاد يحس بها أحد ، فبدأ ببعض اضطراب فى الحركات ، وبعض ولاحظ – دون دهشة – ان الاثر الحسن الذى بدا على السهو والشرود والوجوم .. على ان هذه الاعراض أخذت تزداد شيئا فشيئا ، وما لبث لويس ان شعر بحاجة الى الوحدة ، تدفعه الى الابتعاد عن صديقه روبير والاختلاء بنفسه أياما كاملة فى غرفته ، بحجة انه منهمك فى العمل للانتهاء من كتاب « تاريخ فلورنسا » . وكان يخرج – بعد هذه الوحدة – وقد احتقنت عيناه ، وأصبح كالمحموم ، فيسرف فى الحديث المعاد المتكرر ، كأنه يريد أن يبرىء نفسه بعد أن تذوقت المحرم من الاحلام . وكان يعامل صديقه – الذى يحبه – ببعض الجفاء ، ثم لايلبث ان يعوضه عنه ببعض مظاهر الحب ، التى تمتزج بالدمع فى أغلب الاحيان !

واذا سأله صديقه روبير – فى اللحظة التى يفترقان فيها كل مساء – وقال له : « وبعد ، كيف تجد نفسك يا لويس ؟ » ، فانه كان يجيبه : « اننى بخير .. اننى فى أحسن حال ، فأنا هادىء كما ترى ، بل اننى هادىء جدا وقد شفيت تماما » .. فكان روبير يطامن نفسه قائلا : « ان هذه الحال لن تستمر طويلا ، ويجب البحث عن وسائل أخرى .. ان الحالة دقيقة جدا ، أليس فى مقدور المصادفة أن تتكفل بشفاء هذه النوبة ؟ »

كان روبير – ككل زملائه الأطباء – ينظرون الى المصادفة

نظرتهم الى مســاعد كبير القيمة . وقد جاءت المصادفة ، التى كان روبير يترقبها .. ففى ذات مسـاء ، بينما كان الصديقان يتناولان الطعام على مائدة « لوسى » ، انتحت هذه الأخيرة بروبير ركنا من غرفة الاستقبال ـ حيث كانوا يشربون القهوة ـ وأخـذا فى الحديث بصـوت لا يصل الى لويس ، الذى كان قـد سمر على مقعـده وغاب فترة عما حوله .

قالت المرأة بصوت خافت : « لقد عادت لورنس البارحة من لندن ، بعد أن قضت هناك شهرا كاملا ، تمثل دورها فى رواية «عالم الفراغ» .. وقد أخبرتها بأن لويس موجود فى باريس ، وانه قد انفصل عن زوجته أو طلق منها .. لا أذكر تماما ما قلت ، ولكنى اخبرتها أنه أصبح حرا ! .. أخبرتها بذلك بطريقة عاديه ، كما لو كان خبرا من الاخبار التى تذكرها أية صديقة لصديقتها ، حين يلتقيان بعد فراق طويل .. وبمجرد أن اخبرتها بذلك ، تغير لون وجهها ، وارتمت على صـدرى ، وسقطت مروحتهـا من يدها .. وأخذت أعالجها بالمنبهات حتى عادت الى صوابها ، فقلت لها : « وبعد .. ماهذا ؟ اما زلت تفكرين فى هذا الشاب؟» . فاعترفت لى المسكينة ـ وقد انهمرت دموعها من عينيها ـ بأنها لاتزال تفكر فيه فعـلا ، وانها فشـلت فى كل محاولة بذلتهـا لكى تنسـاه ، وانها تود ان تراه . فأفهمتهـا انه الشاب قد لايحتمل محادثة أحد أو مقابلتهفى الفترة الراهنة، ولكنها لم تهتم لذلك ، وأصرت على رؤيته .. ولما رأيت انه يـكاد يغمى عليها مرة ثانية ، ولكى أوفر استعمال منبه جديد ، وعدتها بأن أحاول أن أجمعهـا به .. وهنا انتهت مهمتى ! »

وفكر روبير لحظة ، ثم نظر الى لويس وقد جلس ساكنا على مقعد ، واستقرت نظراته فى نقطة معينة ، دون أن يهتم باحتساء قدح القهوة الذى كان موضوعا على المائدة القريبة منه .. كان قد نسى كل المحيطين به ، واستغرق فى حلم عميق ، لم يكن يستيقظ منه الا منزعجا اذا وجه أليه أحد الحديث .. ووضع الطبيب احدى يديه على ذراع صديقته وقال : « ومع من تعيش لورنس الآن ؟ »

ـ أظنها وحيدة .. فقد اختفي صديقها القديم ، بعد أن تلقى صدمة قوية فى (البورصة) ، قبل ان تسافر هى الى لندن ببضعة أسابيع . ولا أظنها قد اتصلت بشخص آخر أثناء وجودها فى انجلترا !

ـ حسنا ، اصغى الى !.. عليك أن تقصى على صديقنا لويس ما قصصت على الآن .. حاولى ان تذكريه له بنفس الطريقة ، فقد كنت تروينه أبدع رواية !

***

ابتسمت لوسى، وبادرت الى حيث جلس لويس، فتناولت قدح القهوة وقدمته له، وهى تقول : «أتسمح لى ـ ياسيدى العزيز ـ بأن أذكرك بالحياة الواقعة ؟ » . وجلست الى جانبه ، ثم أخذت تقص عليه القصة من جديد ، بصوت منخفض ، بينما راح روبير يقلب مجموعة صور بين يديه ، وهو يراقب التأثير الذى ينعكس على وجه لويس ، فلاحظ ان وجهه قد احمر قليلا ، ثم رآه يبتسم ابتسامة غريبة .. وفى النهاية ، رآه يضع أصابعه على فمه ، كأنه يرجو لوسى أن تكف عن سرد قصتها ، ثم لم يلبث ان وقف ، وأمسك بيد المرأة فقادها الى (البيانو) ، وفتحه لها وهو يقول :

« عزيزتى لوسى أرجو أن تعزفى لى لحنــا من بتهوفن ، اذا أردت ادخال بعض السرور الى قلبى ! » .. وحاول بقيــة السهرة أن يبدو بمظهر الفرح ، وألا يعود الى احلامه .. بل لقد حدث أن ضحك مرة ، ولكنه فطن ــ ولابد ــ الى ان الضحكة ظهرت مزيفة مصطنعة ، فقد توقف عن الاستمرار فيها فجأة ..

وعاد الصــديقان وحدهما ــ فى تلك الليلة ــ سـيرا على الاقدام ، بعد أن غادرا مسكن لوسى . فلما بلغا مسكنهما ، بنزل (لامرتين) ، جلسا فى الشرفة طويلا ، يدخنان . . وعندما أوشكا على الافتراق ساعة النوم ، أمسك روبير بيد لويس واحتجزها فى يده ، ثم قال له وهو يحدق فى عينيه : «وبعد؟ .. أتحب أن تراها ؟ » .. وكأن لويس كان يتوقع هــذا السؤال، فلم يحاول أن يتخلص من صديقه ، وقال له :«بماذا تنصح لى ؟» . فقال روبير : « انها مسألة شـائكة ياعزيزى، الى درجة ينبغى فيها على الصديق أن يتروى ، اذا أراد أن ينصح صديقه . ولكنك اذا سـألتنى هذا السؤال بوصفى طبيبك المعالج ، لما ترددت فى أن أجزم بأن من الواجب أن ترى لورنس ! »

وفكر لويس لحظة ، ثم قال : « ولــكن أين اراها ؟ .. اننى لااريد أن أذهب الى منزلها ، بل اننى لااجرؤ اذا اردت، وأنت أعلم بمقدار خجلى وحيائى ! » .. فقال روبير : « نعم أعرف ! .. غدا صباحا ، سأكتب كلمة الى لوسى ، لكى تدعو لورنس الى تناول الطعام عندها . وسـنذهب اليها ــ أنا وأنت ــ كعادتنا، وعليك أن تدبر ــ بعد ذلك ــ ما تفعل. فاذا عادت اليك ميولك القديمة ، عند ما تذهب الى هناك ، أمكننا أن نعقد اتفاقا فى نفس المساء ، فهى حرة مثلك كما عرفت

.. أما اذا لم تشعر بميل لها ، فسنعود الى قواعدنا وينتهى كل شىء .. ولكننى اكرر لك أن الطبيب يرجو أن يتم الاتفاق بينكما ! » . فأجاب لويس بابتسامة واسعة : « حسنا ، مادام الطبيب هو الذى يتكلم ، وقد وعدت بطاعته ، فسأمتثل لامره ! »

***

وفى اليوم التالى ، بدا لويس لصديقه كالمضطرب المحموم فكان يسكت حينا ، ويتكلم حينا ، فى غير انتظام ، ويحاول أن تلتقى عيناه بعينى صديقه روبير . . وكان هذا الاخير غير واثق تماما من أن كل شىء سينتهى كما يريد ، فراح يقارن ــ فى قرارة نفسه ــ بين حالة لويس وحالة غيره ممن كانوا على شاكلته ــ من ذوى الارادة الضعيفة ــ قبيل اقدامهم على صراع جدى ، أو على جراحة خطيرة .

وفى ذلك المساء ، ذهب الاثنان لزيارة لوسى فى الساعة المحددة .. ووجدوا عندها « لورنس » ، التى مدت اليهما يدها ، بينما تشبثت يدها الاخرى بيد صديقتها لوسى، وهى تغالب اضطرابا عظيما، برغم مظهرها الخارجى . . وكان لويس شاحب الوجه ، مقطب الجبين ، كأنه قد قام بمجهود عظيم .. وبدا عاجزا عن الكلام فى مبدأ الامر . ومع أن كلا منهما كان قد عرف حالة الآخر ، الا أنه تظاهر بأنه لم يكن يدرك شيئا . وتناول الجميع الطعام فى جو ينقصه المرح والسرور .. وحاول «روبير» و « لوسى » ان يزيلا الكلفة التى سادت الحديث ، الا ان افكارهما كانت منشغلة بشىء آخر ، هو مراقبة الرواية الغرامية التى كانت تمثل أمامهما . واستعاد لويس ذلك السرور ــ الذى اصطنعه طول اليوم ــ الا أن حديثه كان متقطعا ، كما كانت حركاته غريبة تنبىء عن

انفعاله الداخلى .. بل لقد كسر كأسين ـ وهو يعيدهما فارغتين الى المائدة ـ لفرط اضطرابه .

أما « لورنس » فكانت أشدهم محافظة على مظهرها الطبيعى ، ولم تحاول اتخاذ مظهر مصطنع . فلقد راحت تنظر الى صديقها القديم بعينين خضراوين صافيتين ، كالماء الرائق فى البحيرة ، وكأنها كانت تقول بنظراتها : « اننى لا أزال مقيمة على حبك ، فهل ما زلت ترغب فى ؟ .. ألا ترى أننى ملك لك ؟ .. ليتك تعرف كم سأعنى بك ، ايها المريض المسكين !..لو أنك عرفت لنسيت تلك المرأة الشريرة التى سببت لك الالم ، ولتبعتنى فوراً ! »

ولما عاد الاربعة الى غرفة الاستقبال ، انسحب « روبير » مع صديقته « لوسى » الى الشرفة ، وتركا « لويس » و « لورنس » وحدهما فى الغرفة المضاءة بمصباح واحد صغير . وكانت لوسى تتحايل على أن تنظر اليهما ـ من وقت لآخر ـ لترى ما يجرى بينهما ، يدفعها حب الاستطلاع الذى تتميز به كل بنات حواء ، حتى أن روبير ما كان يسعه غير الابتسام وهى تقول له : « ان الحال فى تقدم ! .. انهما يتقاربان .. أمسك لويس بيديها .. انهما يتحادثان !.. لقد كفا عن الحديث ! .. لورنس تجفف عينيها بمنديلها » .. وكان روبير يقول فى نفسه : « كم تهتم المرأة بكل ما يتصل بالحب ! ان من يتعلم ليصبح محاميا أو مهندسا لا تبلغ دقة ملاحظته مقدارما تبلغه دقة ملاحظة المرأة فى مسائل الحب!»

ولما طالت المقابلة الودية بين لويس و صديقته ، التفت روبير الى لوسى وقال لها : « ادخلى الى الغرفة ، وأعزفى لحنا على البيانو ، على أن تبدعى فى عزفك ، وتستعملى كل ما لديك من مقدرة .. بالامس كان عزفك فاترا تنقصه

الروح ! .. تصورى نفسك اليوم فى الكونسرفتوار (المعهد الموسيقى) ، أمام هيئة من المحكمين ! » . فرمقته بنظرة عاتبة ، وقالت : « يا لك من قاس ! »

ثم دخلت وجلست أمام (البيانو) ، وبدأت تعزف قطعة من لحن « كونى امرأة يا مريم ! » ، الذى يعتبر من أروع الحان الموسيقى الشهير « جونو » وأكثرها تأثيرا فى النفس. وقد عزفتها بمهارة فائقة لم تبد مثلها من قبل ، وكأنها كانت تدفع البيانو الى البكاء .. وغلبها التأثر الشخصى أثناء عزفها ، وهى لا تشعر ، بدافع من شدة اهتمامها بغرام شخص آخر . ولما انتهت من العزف ، كان لويس هادئا ، يرمق لورنس التى أخذت تنتحب .

وغادر روبير مقعده ، وأقبل على لوسى فقبلها فى جبينها ، وهو يقول لها : « أحسنت ! حسن جدا يا حسنائى !.. انك لفنانة حقا ، عندما تهتمين بعملك ! » .. واحمر وجه لوسى سرورا بهذه التحية ، اذ كان روبير يبخل عليها دائما بمثل هذا الاطراء . واقتادته الى احد اركان الغرفة ، وأخذت تحدثه بصوت منخفض . وكانت لورنس و لويس ــ الذى استولى عليه الصمت ــ لا يسمعان من هذا الحديث سوى كلمات قليلة تصل اليهما مصادفة : « مرة واحدة على الاقل .. ولتكن استثناء ! .. لقد مضت مدة طويلة .. ارجوك! » .. وتردد روبير ، ولكنه قال فى النهاية : «ليكن !.. سأبقى» . وما كادت هى تسمع ذلك ، حتى قفزت الى عنقه وقبلته ، ولكنه تخلص منها ضاحكا، واتجه نحو لويس وقال له : «لقد صدر لى الأمر بالبقاء هنا ، فهل لك أن تقبل عذرى ، وأن ترافق الآنسة لورنس الى منزلها .. لا أظنك تعترض علي ذلك ! »

والقت لورنس على روبير احدى تلك النظرات المشرقة، التى تدل على الاعتراف بالجميل من جانب المرأة ، عند ما يقدم لها الرجل مساعدة فى شأن من شئون غرامها . أما لويس ، فلم يبد أية دهشة ، بل قال : « لا بأس فالوقت متأخر !.. وقد ذكرت لى لورنس انها تشعر بالتعب .. سأرافقها الى منزلها » .. واحمر وجه لورنس كأنها فتاة صغيرة تشعر بالخجل ، وتمتمت بكلمات مرتبكة ، غير واضحة ، بينما أمر روبير باستدعاء عربة من الموقف القريب ، فى الشارع .. وافترقوا . وغادرت لورنس منزل لوسى وهى تستند الى ذراع لويس .. وانتهزت لوسى أول لحظة من لحظات الخلوة بروبير ، فتعلقت بعنقه ، الا ان الطبيب تخلص منها برفق ، وأسرع الى الشرفة لكى يتبع بنظراته عربة مقفلة سارت فى اتجاه الغابة .. العربة التى تحمل صديقه لويس ومعه لورنس . وما ان اطمأن ، حتى عاد الى لوسى وجذبها الى صدره ثم قبلها فى وجد ..

***

وغادر روبير منزل عشيقته فى الساعة الخامسة صباحا ، واتجه صوب (فيلا لامرتين) ، حيث كان يقيم مع صديقه لويس . وكان النهار قد طلع ، فظهرت السماء صافية ، وان شاب صفاءها قناع خفيف من الضباب .

ولما دخل المنزل ، اتجه الى غرفة صديقه وطرق بابها ، ولكنه لم يسمع صوتا أو حركة .. ودخل الغرفة بحذر . وكان الضوء يتسرب اليها من النافذة المفتوحة ، يطارد فلول الظلام الباقية فى الاركان . ووجد الفراش وقميص النوم على حالهما ، لم يمسا . فتمتم قائلا يحدث نفسه : « هه .. ان

لويس لم يعد الى المنزل . لقد تطورت الامور الى أحسن مما قدرت . لاشك ان تلك الصغيرة لورنس ذات مقدرة عظيمة .. والآن ، فلأستكمل حاجتى من النوم ! »

واستيقظ روبير متأخرا ، حوالى الساعة العاشرة . وكان أول ما اتجه اليه فكره هو لويس ، فسأل الخادم عندما دخل حجرته لينظف له ملابسه : « هل عاد المسيو لويس ؟ »

ـ نعم .. لقد عاد السيد فى منتصف الساعة الثامنة ، ولم أدخل حجرته بعد حتى لا يستيقظ من نومه !

وغادر روبير فراشه بسرعة ، وارتدى بعض ملابسه ، ليسرع الى صديقه فيعرف حقيقة ما حدث بين لورنس و لويس ، وهو يقول فى نفسه : « ان لويس يستيقظ مبكرا ـ فى العادة ـ فمن الغريب أن يلازم فراشه بعد أن دقت الساعة العاشرة . لا شك انه يقلب الصفحات التى كتبها من « تاريخ فلورنسا » .. وسنرى! » .. وقبل أن ينتهى الطبيب من ارتداء ملابسه ، دخل لويس لوت الى غرفته .. وكان لا يزال مرتديا الملابس التى كانت عليه بالامس ، وقد تشعث شعره ، وشحب وجهه ، وذبلت عيناه من آثار دموع جديدة . ولم يكن الاعياء الذى يبدو عليه من نوع الاعياء الذى يبدو على الرجل بعد قضاء ليلة غرام مع صديقته . فانزعج روبير قائلا لمرآه ، وقال : « ماذا بك ؟ .. اتشعر بألم ؟ »

ـ لا ، ولكننى لم انم . وهذا كل ما هناك .. أريد أن أتحدث اليك ، فهل يتسع وقتك ؟ .

ـ اننى لا انتظر أحدا ، فاجلس وتكلم ..

وجلس الطبيب الى جانب صديقه وسأله : « هل أجبت الصغيرة لورنس الى رجائها ؟ » . فقال لويس : « أصغ الى! .. ستعرف كل ما هنالك ، فلا تسألنى عن شىء ! .. لقد رأيتنا مســاء الامس ونحن نستقل العربة . ومنذ غادرت شارع (فريدلند) ، الى أن وصلنا الى منزل لورنس ، لم اتبادل معها غير بضع كلمات لا معنى لها . وكنت ـ ونحن فى منزل لوسى ـ قد شعرت نحوها بعاطفة حب حقيقيــة ، ولكنا لم نكد ننفرد ـ فى العربة ـ حتى بدأت الخلوة تضايقنا وتحرجنا . ولحسن الحظ ان العربة كانت تسير بسرعة ، فأوصلتنا بعد خمس دقائق أو ست .. الم تزر منزل لورنس من قبل ؟ .. »

وسكت لحظة ، ثم اردف : « انها تقطن حجرة من منزل كبير ، فى شارع (برجوليس) . وقد وقفت العربة أمام باب المنزل الخلفى ، حتى لا يخرج البستانى من غرفته ـ فى هذا الوقت المتأخر ـ لكى يفتح الباب الخارجى . ولما فتحت الباب قالت لى : « ان الممر طويل ومظلم ، واننى لاشعر ببعض الخوف ، فهل لك ان تصحبنى الى غرفتى ؟ » .. ولم يكن فى وسعى أن أرفض ، أليس كذلك ؟ .. فأمسكت بذراعى ، وراحت تتكىء عليه اتكاء له معنــاه البليغ . أما أنا فقــد شعرت باضطراب لا يمكننى أن أعبر عنه .. كان اضطرابا غريبا ، وكأننى أواجه الموت ، ولا أملك منه فرارا . فان فكرة الاختلاء بامرأة واحتمال حبها ، كانت تبعث الاضطراب الى نفسى .. ! »

وقال روبير مبتسما : « أعرف ذلك ! » . فمضى لويس فى حديثه قائلا : « واجتزنا الممر الممتد فى الحديقة ، حتى بلغنا المبنى ، وكان مؤلفا من جناحين ، وغرفة لورنس فى الجناح

الايمن . فقالت لى : « ليس لمنازل هذا الحى حراس ، بل ان كل ساكن يحمل مفتاحا للمبنى ، ومفتاحا لحجرته .. أليس هذا بديعا ؟ » . وأخرجت من جيبها مفتاحا ، فتحت به باب المبنى ، فظهر البهو وقد أضىء بمصباح كهربائى ، ولكنه كان ضعيف الضـوء . ولم تتعجل لورنس اغلاق الباب ، فبقينا لحظة قصيرة جدا ، أنا عند نهاية السلم وهى عند الباب .. وشعرت اذ ذاك بحرج موقفى ، ورحت أغالب نفسى بجهد أؤكد لك ان لا دخل فيه للرغبة ، حتى دخلت البهو .. ووضـعت لورنس أصبعها على فمها ، وتقدمتنى الى غرفتها ، فصعدت السلم .. انى لأذكر جيدا كل ما مر بفكرى واحساسى وأنا أصعد السلم . فقد قلت لنفسى : « الآن ـ بعد أن خضعت وأطعت ـ يجب أن أسير فى هذا الطريق الى النهاية ! .. ان للورنس كل الحق فى أن تتوقع منى الحب ، فانها لم تظهر لى غير الاخلاص .. وهى ـ فى الحق ـ جميلـة جـدا ، مخلصـة جدا ، مرغوبة الى اقصى حد .. وفوق ذلك ، يجب أن أشفى من مرضى ، وانى لأشـارك روبير فى اعتقـاده بأن الحب كفيل بشفائى » .. هذه الافكار وكثير غيرها مرت برأسى وأنا أصعد العشرين درجة ، اذ تمر بالمرء أحيانا لحظات يتعدى الفكر فيها حدود الزمن ، ولا يظل حبيسـا فى نطاقه المعتاد .. »

قال روبير : « هذا صحيح جدا .. وبعد ؟ »

ـ وبعد .. لم نكد نجد نفسينا منفردين فى غرفة مغلقة ، حتى حاولت أن أنفذ مااعتزمت عليه وأنا أصعد السـلم ، فأخذت لورنس بين ذراعى ، وهى خفيفة كالطفلة ، وجلست على أول شىء صادفنى فى الظلام السائد ، وكنت لاأزال ممسكا

بها ، عندما رحت أبحث بشفتى عن شفتيها . وقد ردت الى قبلاتى .. ولا أملك أن أصف لك العاطفة القوية والحرارة الصامتة اللتين ضمنتهما قبلاتها .. وأنت طبيب ، وتستطيع تقدير أثر ذلك الاتصال فى رجل مثلى أصبح الآن سريع التأثر ، لاسيما بعد أن صام عن الحب مدة تزيد عن أربعة أشهر .. لذلك فان جسمى ودمى جعلانى أتوهم اننى قد عثرت على الحب من جديد ، فاستسلمت لنشوة تامة لحظة قصيرة ، نسيت خلالها الحقيقة .. وشعرت بالدم يغلى فى عروقى ، فضممت الجسم الذى كان بين يدى بقوة ، وهتفت مرتين بصوت عال : « كاميل ! ! كاميل ! » ..

وهنا صاح روبير : « ياللشيطان !.. وهل سمعتك لورنس وأنت تنطق باسم كاميل ؟ »

ـ نعم سمعتنى .. وأنا أيضا خيل الى أننى اسمع شخصا يردد هذا الاسم فى الغرفة . وعندئذ انتزعت لورنس نفسها من بين يدى بعنف ، وأصلحت ملابسها ببرود ، ثم أضاءت الانوار كلها فى الغرفة ، كأنها تريد أن تنير الطريق لغرامها المنحرف . وبقيت فى مقعدى وقد أصابنى نوع من الغباء .. كانت رغبتى كلها قد تبخرت ، وأحسست برأسى فارغا ، وبالبرودة تسرى فى أعضائى . وأصابنى ذعر لظهورى بهذا التناقض ، فاستجمعت شتات نفسى ، وغادرت مكانى واتجهت اليها ، وكانت تقف أمام المرآة لتنظم شعرها .. وحاولت أن أجبر نفسى على تطويق جسمها ، وضمها الى صدرى ، ولكنها أشاحت عنى بحزن ، وأبعدتنى عنها . ثم نظرت الى بعينيها الزرقاوين ، ورأيت فيهما دمعتين لامعتين ، كما قرأت فيهما شعورا هو مزيج من الحب والسخرية والشفقة . وقالت : « ألا رفقا ياعزيزى لويس ، وكفى

خداعا وتمثيلا !.. اننى أحبك كثيرا ، وأنت تعرف ذلك ، وقد برهنت لك على حبى ، فلم أعرض عنك بعد كل مالقيت من صدك وقسوتك فى العام الماضى .. وسأبرهن لك عليه مرة أخرى ، فأغفر لك مابدر منك الآن ، برغم أنه أشد قسوة على احساسى من كل ما مضى ، اذ يبدو انك أردت استخدامى لحظة كوسيلة لحب امرأة غائبةبعيدةعنك.. ولا أعتقد انك كنت تشعر بما تصنع ، فأنت أكثر اخلاصا من ان تفعل ذلك ، ولكن هناك امرأة تقف حائلا بينى وبينك ، وليس فى مقدورك ابعادها عن الطريق ، ولذلك فانها ستحول بينك وبين حبى أو حب أى امرأة اخرى ، على الدوام » . فأجبتها قائلا : « أؤكد لك انك على خطأ . وهل تغضبين منى لأن لسانى قد نطق باسم غير اسمك ، فى الوقت الذى كنت أفكر فيك أنت ؟ » . فقالت : « لا ، انك تخدع نفسك ، بل انك لا تريد أن تعترف لنفسك بأنك ملك لامرأة أخرى ، وانها قد استحوذت عليك تماما . وهذه المرأة هى ــ على ما أظن ــ « كاميل » ، التى كنت أجهل اسمها . ان كل ماتفعل ، وكل ماتقول ، يخونك ويكشف عن هذه الحقيقة . ولما أتيت بك الى هذا المكان ، كنت على علم بذلك ..أتظن اننى لم أقرأ افكارك فى عينيك ؟.. ولكننى كنت أعتمد على ذكرياتنا المشتركة ، وعلى الألم الذى سببته لك المرأة التى تحبها ، فى حين أننى لم أحاول فى حياتى الا أن اجعلك سعيدا .. فضلا عن اننى كنت صادقة فى حبى لك .. وفى الحب ، يتعلق الانسان بأصغر الآمال ، كما تعرف .. ولكننى لم أنجح ، وقد انتصرت الاخرى على ، وليس أمامى الا التسليم بذلك ! »

وسكت لويس لحظة ، ثم قال : « ولم يسعنى الا انأقبل يدها – التى تركتها بين يدى – وأنا أقول لها : « ان قلبك هو أنبل القلوب التى عرفتها وأطهرها » . ولكنها أجابتنى : « لست أمتاز عن أية امرأة اخرى ، ولكننىاعرف كيف احب باخلاص . والآن ، مادام السلام قد ساد بيننا ، وقد سوينا الموقف ، فلتجلس هنا الى جانبى لكى تقصعلى تفاصيل قصتك التى أجهلها ، وأظن ان من حقى أن أستحوذ على ثقتك ! »

وتمتم روبير قائلا : « ان لورنس طيبة القلب حقا ، وهى تستحق أن تجد لنفسها رجلا يحبها ! » . فقال لويس : « أجل .. وقد أطعتها وجلست الى جانبها ، وسردت عليها كل القصة المحزنة التى تعرفها ، مع تفصيلات قد تجهلها أنت نفسك .. وكانت تصغى باهتمام عظيم ، وتبكى فى بعض الاحيان .. وحين وصلت فى قصتى الى سرد ما حدث بين الدكتور جوفر وابنته كاميل – على مسمع منى ، وأنا وراء الباب – تمتمت لورنس قائلة : : « ياللمرأة المسكينة !.. ان هذا شىء مروع !.. كيف تمكنت من احتمال كل هذا الألم ؟» . وشرحت لها كذلك آلامى التى قاسيتها وحدى فى منفاى بسان فلورى ، وكانت تمسك بيدى من وقت لآخر ، وتضغط عليهما . وحين أعود الآن الى التفكير فى هذا الموقف ، أجده غريبا جدا .. تصور الغرفة الصغيرة ، والنور يسطع فيها ، وأمامنا الفراش مستعد وكأنه ينتظر العاشقين .. وهى أمامى عارية الصدر والذراعين ، وملابسها غير مرتبة من أثر عناقنا ، وأنا بملابسى هذه ، التى أرتديها الآن .. وحين ذكرت لها كل شىء ، شعرت اننى أقل حزنا

وألما ، ولكننى أشـد تعبـا .. كنت مثل شخص استنزف الكثير من دمه .. وكان ضوء الفجر قد بدأ يصل الينا من النوافذ، فنظرت الى لورنس وقالت : « ياعزيزى لويس، لم يبق لدى شك ـ بعد كل ما سردت على ـ فى أنك تعبـد امرأتك ، ولا تتألم الا لسبب واحد ، هو أنك انفصلت عنها .. اسمع جيدا ما أقول : ان ألمك منبعث عن الفراق، وليس عن تذكر سبب شقائك ! » . فقلت لها : « وبعد ؟ » .. قالت : « ليس عندى غير نصيحة واحدة أسديها اليك .. قد لايكون فى مقدور المرأة أن تحكم فى هذه الشؤون ، ولكن كل ما أعرفه هو انه اذا كانت هناك نقطة سوداء فى حيـاة رجل ما ـ وليكن أنت مثلا ـ وكنت أحب هذا الرجل وأثق من أنه يحبنى ، فلا شىء فى العالم كله يمكن أن يحول بينى وبينه !.. هل تسمع ما أقول ؟.. لاشىء غير الموت يمكن أن يفصلنى عنه ! .. والآن ، وداعا فقد طلع النهار ، ولا أريد أن يراك عندى أحد ، لأنك لن تعود الى هنا ثانية ! »

***

وسكت لويس ، فسأله روبير : « وهل فارقتها على هذه الحال ؟ » . فأجاب : « نعم، بعد ان تبادلنا قبلة أخوية !.. ولعلك ترى أننى وصلت الى هنا مضطربا جدا ، شـديد الحيرة ، فاقد الارادة الى درجة لم أشعر بها من قبل .. وهأنذا أسائل نفسى الآن : « ماذا يجب أن أفعل ؟ » .. ولم يجب روبير عن هذا السؤال ، بل أخذ يسـير فى الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة . ثم أشعل سيجارة ، وجلس أمام لويس ، وقال له :

ـ اصغ الى !.. انني لا أستغرب ماحدث ، فان هذه هي النهايه الطبيعية . وحين عدت بك من (سان فلوري) ، كنت على اعتقاد راسخ بأن النوبة التي أصابتك ستنتهي بأن ترى هذه الحقيقة الواضحة ، وهي : ان شفاءك متوقف على عودتك الى زوجتك . وأنت ترى ياصديقي أن هذا كان شيئا معروفا بالبديهة كما يقول الرياضيون ، فان كاميل ، بالنسبة اليك امرأة تختلف عن الاخريات .. اذ أنك رأيتها في الوقت الذي تفتحت فيه عيناك وتنبهت فيه حواسك ، وقد حدث لك هذا في سن مبكرة ، فوجد الغرام حكما لم ينضج بعد ، وجسما أقل صلابة .. وفوق ذلك ، هناك القوة الفريدة في نوعها ، التي زرعت بها بذرة هذا الحب في قلبك ..

« ولما كنت شاذا نادرا بين بني جنسك ، فانه بدلا من أن تنمحي صورتها من نفسك بسرعة ، اذا الفراق يزيدها رسوخا . بل انك وجدت سرورا ولذة وأنت تغذي نفسك بفكرتها ، وأصبحت هذه الصورة بالنسبة لك مثلا أعلى يخالف الحقيقة .. ولذلك أخذت نفسك تشمئزمنها ، فقدمت لذكرياتك تضحية من ذوب نفسك وشخصك، وكانت تضحية يومية جعلت ذكرياتك أثمن وأحب اليك من ذي قبل ، لما كبدتك من جهود وآلام . فحين تنحصر حياة الانسان ـ طوال طفولته وشبابه ـ في امرأة معينة ، لايبقى ـ بعد ذلك ـ مجال لشيء آخر ياصديقي . وصدقني عندما أكرر ذلك .. لاشيء يمكن أن ينقذه من هوى هذه المرأة ، اذ ينتهي أمرها بأن تستحوذ على الرجل ، كما قالت لورنس الصغيرة .. انها تصبح جزءا من تفكيره ، ورأيا من آرائه .. بل انها لتصبح جزءا منه هو . وموجز القول ،

ليس فى امكانك أن تنزعها من قلبك ، كما ليس فى امكانك ان تنزع عينيك وتغير لونهما .. وعلاوة على ذلك ، فانها أتاحت لك الاستمتاع بسعادة لا مثيل لها .. سعادة تحقيق هدفك وتحول حلمك الى حقيقة واقعة ، وهى سعادة قليلة الحدوث ..

« والآن ، أنت تعرف ان هذه المرأة لاتزال على قيد الحياة ، وانها لاتزال مقيمة على حبك ، وان الامر متوقف عليك ، وان فى مقدورك استعادتها والاحتفاظ بها . ومع ذلك ، فأنت تقاوم كل ذلك ، وتريد أن تعيش على الرغم من ذلك .. هراء باصديقى ، بل جنون ! .. واذا كنت لم أذكر لك ذلك من قبل ، فلعلمى بأن منطق الحوادث سيكشفه لك . ليست هناك غير وسيلتين للمقاومة : فاما أن تنتحر – كما فعل فرتر – واما ان تنفصل عن الحياة الاجتماعية وتلوذ بالدير ! .. فأيهما تبغى ؟ »

وقال لويس بصوت واهن : « لا .. لا هذه ، ولا تلك ! »

– حسنا ، اذن يجب أن تخضع .. ان الظروف الحالية مواتية ، ولكن الرياح قد تهب من جهة أخرى . فلتسرع !.. ليس هناك – حتى الآن – من يعرف ماحدث بينك وبين زوجتك تماما .. وكاميل تعيش وحدها مع والدها ، فى بقعة نائية من اقليم (الاندز) ..

فقاطعه لويس وهو يهب واقفا فى مكانه : « كيف ذلك ؟.. أتعرف مكانها ؟وكيف عرفت ؟ »

– لايهمك ذلك كثيرا .. اننى أعرف كل شىء ، ولكنى لا أملك أن أخبرك بكل شىء ! .. لقد تلقيت خطابين من « كاميل » ، ولم أر من واجبى ان أرد عليهما قبل ان تهدأ أعصابك تماما .

وهنا صاح لويس : « هل هى على قيد الحياة ؟ .. هل هى تعسة شقية ؟ » . وقال روبير كلاييس : « هل ترى مقدار حبك لها ؟ .. أنت لاتسألنى الا عنها وعن حياتها ، ولا تسألنى عن الشىء الوحيد الذى يعترض سعادتك وهو الطفل ؟! » .. فندت عن لويس شهقة مختنقة ، بينما استطرد روبير قائلا : « نعم ، الطفل .. ويجب أن نفكر فى موضوعه قبل أن نستقر على رأى ما . لاشك انه قد ولد الآن ، وأصبحت كاميل أما منذ عدة أسابيع .. وهى ضعيفة ، ولكنها ليست مريضة . وبعد ، فماذا قررت ؟ » . فقال لويس وكأنه يحتمى بصديقه : « انصحنى . ليست لى قوة على الحكم ، بل ولا شجاعة على التفكير ! »

ـ أنصحك ؟! .. لا ، لست أملك ان أنصحك ، فأنت تدرك ـ بالتأكيد ـ ماتنطوى عليه نصيحة كهذه من خطورة ومسئولية . ففكر اليوم فى الأمر وحدك ، لأننى مضطر الى مغادرة باريس .. فكر فى « كاميل » بوصفها أرملة ذات ولد .. وكما قلت أنت فى مذكراتك التى انتهيت من قراءتها : « ليس هناك شىء يشمئز منه الحب أو ينفر » .. فكر فى أن هذه المرأة تحبك ، وأنها ـ حتى اذا كانت قد أخطأت أو اجرمت ـ قد كفرت الآن عن ذنبها !

ـ اذن ، بقى على أن أعود اليها ؟

ـ لم أقل ذلك ، بل يجب أن تفكر فى الوجه الآخر للموضوع .. فيما تنطوى عليه هذه العودة من الناحية الاخلاقية وناحية الكرامة الشخصية .. انها ستنطوى على تخاذل وضعف ، أو كما قال جوفر : « على جبن ونذالة » ..

فقاطعه لويس قائلا : « ولكن الغفران ليس جبنا » .. فقال

روبير : « آه ، ما أرخص الكلمات ! .. لو لم تكن تحب كاميل ، ولو لم يكن جسدك كله يدعوها ، لكانت استعادتك لها مثلا رائعا للشفقة والرحمة اللتين يدعو اليهما الدين .. ولكنك — فى الواقع — تفعل ذلك ارضاء لنفسك ، واطفاء لنار حبك ، وستتكبد عناء أكبر — فى حياتك — اذا لم تصفح وتنس .. وفوق ذلك ، أنت تعرف عقيدتى فى هذه الشؤون ، فان الخضوع للظروف أمر لابد منه — فى نظرى — ولا يمكن لانسان أن يتهرب منه الا اذا تخلى بمحض ارادته عن الحياة .. وهذا ما كنت أقوله لك فى هذه الساعة . ولكن المهم أن يعرف الانسان السبب الذى من أجله يخضع للظروف ، وأن يخضع لها وهو متمالك لشعوره ، لا أن يكون خضوعه مجرد حركة منعكسة من حركات الارادة ! »

واختتم روبير حديثه وهو يقول : « والآن ، الى اللقاء .. سأتركك وحدك لتفكر فى هذه المسائل الخطيرة ، دون أن تكون عرضة للمؤثرات السريعة .. لتفكر فيها بذلك الجد الذى يلائم رجالا مثلنا . وسأعود لمقابلتك فى هذا المساء ، فاذا قلت لى : « لا أريد استعادة زوجتى » ، فان واجبى يكون قد انتهى ، ولن يصبح فى امكانى أن أصنع شيئا آخر فى سبيل شفائك . . واذا قلت لى : « أريد استعادتها » ، أعددنا حقائبنا استعدادا للسفر ، وسأرافقك فى أول قطار .. والآن الى اللقاء ! » . وفتح روبير ذراعيه للويس وضمه اليه بحب ، ثم وضع قبعته على رأسه واتجه نحو الباب .

وعندما فتحه ، أمسك به لويس وقال له : « كلمة أخيرة أرجو ألا تضن بها على ياروبير .. ماذا كنت تفعل أنت لو كنت مكانى ؟ » . فقال روبير فى هدوء ، وهو ينظر الى لويس : « كنت أعود اليها ! »

(٤)

لم يخطىء « روبير كلاييس » فيما قال ، فان « كاميل » كانت قد أصبحت أما منذ ثلاثة وعشرين يوما . ففى منتصف شهر مارس ، أحست بالاعراض الاولى وشعرت بضعف عظيم .. شعرت كأن أعضاء جسمها مهشمة على أثر سقوطها من مكان مرتفع ، وظهرت أورام فى جسمها ، ولم يعد فى امكانها أن تأكل شيئا .. وبالجملة ، فقد أصابتها كل الآلام التى لم تعرفها منذ بدء حالتها .. وكذلك صار وزن الجنين أكبر مما كان بوسعها أن تحتمل .. ترى هل كانت هذه هى المرحلة الأخيرة ؟.. لقد كانت تجهل ذلك ، ولم تجرؤ على أن تسأل والدها عن الأمر .. فماذا يهمها لو أنها كانت على وشك الوضع ، أو على وشك الموت ؟ !

لقد غفلت عن مرور الزمن ، وهى تتبع سلسلة الماضى فى قليل من الاهتمام وكثير من الحزن .. لم تكن تبالى بشىء ما ، ولم تكن تثور ضد شىء ما . وبدأت الايام تتراكم وراء ظهرها ، لكى تقيم حاجزا يفصل حياتها بالأمس عن حياتها اليوم ، كما كانت أشجار الصنوبر — فى الغابة — تحجب عنها الأفق من جميع الجهات .. ولم تكن تدرى هل انقضت أيام أو أسابيع ، أو شهور !

وكان الدكتور جوفر يلازمها ابان هذه الأزمة ، ويسهر عليها وهو صامت ، فلم يكن فى وسعها أن تميز ما اذا كان أبا أو طبيبا أو سجانا .. ولم تجرؤ على أن توجه اليه الحديث ، لتسأله قائلة : « هل اقترب أوان الوضع ؟ » .. الا انها مالبثت ان دخلت فى دور النقاهة ، وأصبح نومها

طبيعيا هادئا ـ بعد ان كان قصيرا مصحوبا بالحمى ـ وزالت أورامها ، وبدأت تتناول الطعام ، وأحست كأن وزن الطفل قد خف .

ودخلت « كاميل » ـ أخيرا ـ فى الاسبوعين الهادئين ، اللذين تهبهما الطبيعة للمرأة التى توشك أن تصبح أما ، وكأنها تسلحها بهما قبل دخول المعركة . وسمح لها «جوفر» بالخروج بصحبة « ماريا » ، فكانت تستند الى ذراع الفتاة، التى كانت ترمقها بنظرات الحب المشوب باحترام لأمومتها القريبة ، وقد اضطربت اضطراب الناسك أمام محرابه ..

ونشأت ـ بجامع من اخلاص ماريا وألم كاميل الممزوج بضعفها ـ صداقه خالصة بينهما ، راحت تنمو وتزداد حرارة بسبب الاعجاب الذى شعرت به كل منهما نحو الاخرى .. لم تحلم ماريا فى حياتها برؤية امرأة فى مثل ذلك الجمال والنبل ، ولم تجد أحق بالعبادة من سيدتها . بل انها كانت تكاد تبكى عندما تخاطبها كاميل فتقول : « تطلعى الى يا ماريا ، فأنا أحب عينيك ! »

وكانت تظن ان سيدتها تسخر منها ، اذ كانت تجهل مقدار جمالها ، ولم يسبق لشخص أن حدثها عنه .. كانت زهرة برية منزوية فى وحدتها ، ومع ذلك، فقد كانت غاية فى الجمال، وما كانت الملابس البسيطة التى ترتديها لتخفى حسن تكوينها .. كان جمالها من نوع آخر يختلف عن جمال كاميل ، وكان فى وسع المرء أن يقرأ فى عينى ذلك الوجه ـ الذى لوحته حرارة الشمس ـ الرغبة فى الحب والوفاء والاخلاص ، بشكل يبعث على التأثر . وكانت تفلت من العينين ـ أحيانا ـ نظرة تدل على عاطفة ورغبة مكبوتتين .

وهكذا شعرت كل من الشابتين بالحب نحو الاخرى ، وهى تدرك أن تلك الاخرى تقاسى من ألم سببه لها الرجال، وساعد عليه ضعفها النسوى .. واكتشفت كاميل فى نفس ماريا عواطف وأحاسيس كانت تجهلها هذه الاخيرة نفسها . فقد قرأت الألم الذى احتملته هذه الاخيرة بسبب عدم زواجها ، وقرأت أملها الضعيف فى الحب والأمومة ، بل يأسها من أن يقدر لها أن تحظى بهما .. وقرأت « ماريا » على وجه ابنة الدكتور جوفر مقدار ما كانت تعانى من ألم لمسته — هى نفسها — فى الرجفة التى كانت تنتاب السيدة اذا حضر والدها الطبيب ، وفى الدموع التى كانت تنهمر من عينيها اذا ما انفردت بنفسها .. لاشك أن ألمها ناشىء عن افتراق عاصف عن الرجل الذى تحبه ، الرجل الذى كان يجب أن يبقى الى جانبها فى الليلة التى تتخلص فيها من حملها .. ليلة المخاض .. ومع ان « ماريا » لم تسأل مولاتها عن شىء ، ولم تبد أية رغبة فى الاطلاع على مبعث همها ، الا ان كاميل كانت تشهد فى عينى الفتاة مدى تأثرها لأساها ، بل لقد هز قلبها ان الفتاة كانت تبكى الى جانبها فى بعض الأحيان . وما لبثت «ماريا» أن عرفت — بالتدريج ، وجزءا بعد جزء — تفاصيل ذلك الماضى المرير ، الذى قضت عليه كارثة !

ولم تبد الفتاة دهشة ولا استنكارا ، وأخذ قلبها الجاهل يلتمس المعاذير لكل ضعف سببه الحب . وسمعت صوتا فى أعماقها يقول : « لو كنت مكانها لخضعت أنا الأخرى للمؤثرات .. ولأخفيت الحقيقة مثلها ! » .. وأصبح السر — الذى أفضت به كاميل اليها — رباطا جديدا بينهما ، فلم تعودا تفترقان ، وحصلت « كاميل » من والدها على اذن



((.. ووضعت لورنس اصبعها على فمها ، وتقدمتني
الى غرفتها ..))

باعداد فراش آخر فى مخدعها لماريا ، الى جانب فراشها هى .. واذ تم ذلك ، بدأت تشعر أن الليالى أقل سوادا وحزنا .. لم تعد ترهب تلك الليالى التى كانت تستيقظ فيها - أحيانا - والرعب يملأ قلبها ، وهى تسمع هبوب الريح العاتية على المزرعة .. وكانت اذا شعرت بالخوف يتملكها ، نادت ماريا ، فتقفز الفتاة من فراشها ، وتسرع اليها .. وتتلمس كاميل بيديها - فى الظلام - ذراعى صديقتها ، وتجذبها اليها ، ثم تلصق خدها بخد الفلاحة وهى تقول لها : « أواه ياماريا !.. لاتتركينى، فاننى أتألم ! »

وتضمها « ماريا » اليها فى حنو ، وكأنها أم رؤوم ، وتروح تهمس فى أذنيها بكلمات ناعمة ، تواسيها وتسرى عنها .. وتهدأ أعصاب « كاميل » ومشاعرها ، فتستكين اليها ..

وتبقيان على تلك الحال الى أن يعود النوم الى كاميل . اذ ذاك فقط ، كانت ماريا تعود الى فراشها .. أما فى النهار، فكانتا تتحدثان عن الحبيب الغائب ، وهما تمزجان الدمع وتتبادلان الآمال .. وكانت ماريا لاتفتأ تقول : « اننى واثقة من أنه سيعود » .. فتقول كاميل : « أتعتقدين ذلك حقا ؟ .. آه ، ليت هذا صحيح ! »

- سيعود بكل تأكيد .. اذا كان قد أحبك حقا فى الماضى، فسوف يعود اليك !

وتقول كاميل ، وهى بين الرجاء واليأس : « ولكنه لايعرف مكانى » ، فتهتف بها ماريا : « يجب أن تكتبى اليه ! » ..

تكتب له ؟!.. انها ماكانت لتجرؤ على الكتابة اليه، ولو قدر لها أن تعرف عنوانه . ولكن لهفتها على استعادة سعادتها بعد ان استردت صحتها ، والحاح ماريا فى تشجيعها، أوحيا

اليها بالتفكير فى « روبير كلاييس » . وتذكرت – فى ذلك الوقت – آخر كلمة وجهها اليها الدكتور روبير ، اذ قال : « تذكرى أننى رهن اشارتك فى أى مكان أكون فيه ! » ..

ولم تكن – فى الواقع – تحب روبير، اذ كان اسمه يقترن دائما بالذكرى المروعه لكل ما انتابها من مخاوف وآلام فى أول الأمر . ولكنها تغلبت على ترددها ، وكتبت بنفسها – ذات ليلة – خطابا لروبير ، من بضعة أسطر ، استحلفته فيه أن يذكر لويس بعزلتها الحالية ، ونوع الحياة التى حكم بها الدكتور جوفر عليها .. كما أخبرته بأن حملها قد بلغ منتهاه ، وانها تتمنى أن ترى زوجها قبل أن تصبح أما، لأنها تعتقد أن الطفل قد يقيم بينهما حاجزا جديدا ..

وكتبت على الخطاب عنوان شارع (فريدلند) ، كما كان روبير قد أوصاها .. وتولت « ماريا » حمل الخطاب الى مكتب البريد فى القرية المجاورة ، عند ذهابها الى السوق ، فى يوم الاربعاء .

***

كان ذلك هو القرار الاول من نوعه ، الذى اتخذته « كاميل » منذ عزلتها ، وقد بعث الى قلب المرأة الصغيرة قبسا من الأمل ، أضاء حينا ثم خمد عندما مرت الأيام دون أن يصلها أى رد . وكانت ماريا تذهب الى قرية (كابتى) – كل أربعاء – وتعود فارغة اليدين ، حتى اعتقدت كاميل ان روبير لم يستلم خطابها، أو أنه قد نقض وعده ..

وكانت هذه الصدمة أقوى من أن تحتملها ، فانتهى الهدوء الذى كان قد خفف من ألمها، ولازمت فراشها بعد أن تبينت انها فجعت فى املها الاخير ، ولم تعد تجد فى حب « ماريا » عزا

أو سلوى .. وأسلمت قيادها لوالدها ، يحركها كأنها جماد ، وقد استوى عندها الشفاء والموت !

لم تعد تدرى بالزمن ، وقد استكانت الى اليأس .. كأنما استحالت الى جماد ، لا يكاد يعى ماحوله .. ولكن وراء المظهر الجامد ، كانت ثمة حياة عاصفة ، محتدمة ، هوجاء .. كانت هواجسها تذكو وتستبد ، وقد انهارت أمامها كل مقاومة كان الأمل والرجاء يقيمانها .

وكان صوت الرعد يدوى فوق (ماو) ـ فى تلك الآونة ـ برغم ان الربيع كان قد انتصف ، فكان هزيمه يتكسر فى أرجاء الغابة ، ويرتد صداه واهنا ، فيخيل للسامع أنه أنين يتصاعد من شخص يتألم . وكانت كاميل ترتعش خوفا كلماسمعت هذا الانين ، وتحتمى بفراشها ، فلا تعاودها السكينة الا عندما تبدأ الامطار فى السقوط .. وهكذا كانت تحرم من الراحة التى يجلبها الليل للمريض عادة .. وانتشرت الرطوبة فى المنطقة ، فبدأ البرد يؤلم كاميل حتى يوقف آهات الألم فى حنجرتها ..

وفى ذات ليلة ، وحوالى الساعة الثالثة صباحا ، فاجأتها آلام فظيعة لم تعهدها من قبل .. واستيقظت ماريا على صوت صرخة مدوية ، فأضاءت النور ، وأسرعت الى فراش سيدتها ، فرأتها أشد بياضا من الوسائد التى كانت تنام عليها ، وقد أغلقت عينيها على دموع منهمرة ، والعرق يتصبب من جبهتها .. وكانت نائمة ، فان من رحمة الطبيعة بالاجسام النسوية الضعيفة ، ذلك النوم الفجائى خلال هذا الظرف الدقيق .

وأسرعت « ماريا » فطرقت باب غرفة الدكتور جوفر ،

وطلبت معونته .. وفى طرفة عين ، كان الطبيب قد انتقل الى حجرة ابنته .

كان قد استعد للحدث منذ خمسة عشر يوما، وقد حسب حسابه ، وتأهب له تمام التأهب ، وأخذ ينتظره بفارغ الصبر ، ويتوقع أن يفاجأ به فى أى وقت .. وها هوذا قد حان ، فى نهاية الخمسة عشر يوما ، فاقترب من فراش « كاميل » وقد ارتدى ملابسه البيضاء .. وسألته ماريا فى استحياء : « هل يجب أن أخرج ؟ .. هل أستدعى لك والدتى ؟ » . وتردد جوفر قليلا، فقد أدرك ــ وكان محقا ــ أن وجود الفتاة كفيل بأن يبعث الثقة الى قلب المريضة . فقال لها فى تلطف : « بل ابقى يا ابنتى .. أعدى اللفائف للطفل ، ثم عودى الى ، وقفى بجانبى ! »

***

وبدأت المعركة المروعة ، وبدأت الآلام القاتلة .. واستبدت الاوجاع بكاميل ، فأخذت عضلاتها تتقلص ، وعيناها تطلبان الرحمة ، حتى رق قلب جوفر ، فلانت قسوته ، واضطرب فؤاده ، وطغت الرحمة على كل شعور آخر فى نفسه ، وهو يشهد تلك الاوجاع المبرحة ــ التى لا يمكن للرجل أن يتصورها ــ تنعكس على وجه المرأة المعذبة ..

ورأى الطبيب للمرة الثانية فى حياته ــ خلال هذا الحادث ــ مخلوقا هو أعز المخلوقات اليه ، يتشبث برحمته ، ويمد له ذراعيه ، ثم يتعلق بيديه وبملابسه وبكل مايصل اليه .. ومهما يكن قلب الأب قاسيا ، وكيفما تتطور ارادته ، فلا ريب انها تلين تحت تأثير هذه المظاهر .

ولقد تجلت هذه المظاهر فى أقسى صورها وأفعلها بالنفس، عندما اشتدت بكاميل آلام المخاض وأوجاعه ، وحين راحت تتلوى وتتعذب .. واستطاع منظرها المعذب أن يهفو بقلب الأب وأن يحركه فينفض عنه جمود الغضب .. وهكذا راح الدكتور جوفر - وهو جالس على مقربة من فراش كاميل - يستعرض كل ماقاسته المسكينة ، التى بدت أشبه ما تكون بالحيوان المقيد فى أغلاله ..

وللمرة الاولى ، تجلى للدكتور جوفر - فى وضوح تام - ضعف المرأة وقصر باعها فى معارك الغرام ، فالتمس لها العذر ، ووجد أنها تستحق الرثاء والشفقة !

عشيقة، زوجة ، أم..أى دور من هذه الادوار أدته ابنته بكامل ارادتها ، خلال تلك الظروف التى أحاطت بها وصدمتها ، ثم خلفتها حطاما ؟ ..

ألقى الرجل على نفسه هذا السؤال ، وخشى ان يكون ضميره قد خانه .. وكانت ماريا تركع الى جانب الفراش، وقد تركت يديها بين أصابع سيدتها المتقلصة ، وراحت تتطلع اليها من خلال عينيها المبللتين بالدموع .. وفكرجوفر وهو يشهد هذا المنظر ، فقال لنفسه : « ان هذه الفتاة لا تستمع لغير صوت غريزتها ، انها أسمى منى ! »

وفى هذه الاثناء ، كانت كاميل تئن أنينا عاليا ، فى فترات مختلفة .. وكان الهواء قد سكن فى الغابة ، ولم يعد يسمع فيها غير صيحات طيور الليل ، وأصوات أجنحة طيور أخرى كانت تحوم بالقرب من النافذة .. وانحنى جوفرعلى ابنته ، اذ أطلقت صرخة كانت أعلى من كل ما سبقها ،

وأنشبت أظافرها فى يد ماريا .. وفى خلال تلك الصرخة المدوية ، كانت الطبيعة قد انتهت من مهمتها !

***

كان الصباح قد صار ضحى ، عندما أفاقت المرأة بعد أن وضعت جنينها ، وبعد ان استمتعت بالراحة التى تلى الالم . وكانت ستائر الحجرة تحجب ضوء الشمس ، وأشجار الصنوبر تتمايل — فى الخارج — والعصافير تغرد على إفنانها ، بينما كانت أصوات المضخات تسمع من بعيد ، وهى ترفع المياه لرى الحقول .. أما الغرفة ، فقد كان يسودها السكون التام .

استيقظت كاميل فوجدت نفسها على الفراش الحديدى الذى كانت تنام عليه ماريا عادة . أما فراشها هى فكان فارغا وقد أزيحت عنه الأغطية كلها .. وكانت ماريا تحيك بعض الملابس ، وهى تجلس على مقربة منها . وما لبثت ان قامت واتجهت اليها حين سمعتها تتساءل : « أين هو ؟ » ..

وأدركت انها تعنى ذلك المخلوق الذى لفظته من أحشائها .. فأسرعت الى غرفة الدكتور جوفر ، ثم عادت مسرعة وهى تحمل لفافة من الأقمشة البيضاء ، أودعتها يدى كاميل الممتدتين ..

ومن بين أطواء اللفافة ، برز رأس صغير ، أحمر اللون ، خال من الشعر .. وخرجت من اللفافة — كذلك — يدان صغيرتان ، كأن أصابعهما قد تماسكت بعضها ببعض ..

وحملته كاميل برهة ، وهى جالسة على فراشها .. أهذا

هو ابنها ؟.. انه أشبه بالحيوان .. بل أشبه بالجماد عديم الحس والحركة ، قابل للكسر .. انه ابنها ، وابن جياكوميتى ! ..

ونظرت اليه باهتمام وتوجس .. اهتمام بعثه الفضول — من ناحية — والشعور الغريزى ، الكامن فى نفس الانثى — من ناحية أخرى .. وتوجس أثارته الذكريات التى حفت بخلق هذا الوليد ، فقد خشيت أن تلمح فيه شبيها بأبيه ! .. ولكنها رأت تلك الجبهة المنبسطة الشبيهة بجباه الحمقى ، والعينين المغلقتين فى عناد كأنهما تخافان النور أو تكرهانه ، وذلك الأنف الأفطس ، والفم المضطرب المرتجف .. كل ذلك لم يكن يذكرها بمخلوق معين .. أو بجياكوميتى ، بمعنى أدق !

وفجأة احمر وجه تلك القطعة من اللحم ، وصدرت منها صيحة تشبه مواء القط .. انها شكوى مخلوق يتألم فى الظلام ، دون أن يكون ألمه صادرا عن احساس أو تفكير ! .. ووصلت تلك الصيحة — فى الحال — الى أعماق قلب المرأة الصغيرة ، فأسندت رأسها الى رأس الطفل ، وبكت طويلا حزنا على نفسها وعليه .. لكم أثار أساها مولده التعس ، وتلك الظروف التى ألقت مخلوقا صغيرا الى خضم الحياة ، وقضت عليه بأن يعيش زمنا — قد يمتد سنوات — قبل أن يصل الى راحة الموت !

وعند ما رفعت رأسها وجدت والدها الدكتور جوفر على مقربة من فراشها ، يسألها برقة : « كيف حالك ؟ » .. فابتسمت ابتسامة شاحبة ، وقالت : « بخير . وما حال هذا الصغير ؟.. ولماذا لا يفتح عينيه ؟ » . فقال الطبيب :

« لن يلبث أن يفتحهما .. اطمئنى ، فهو مكتمل الصحة ، وان كان صغير الحجم ، خفيف الوزن ! » .. وعادت كاميل تسأله : « أشعر بألم فى صدرى ، فهل هذا دليل على وجود لبن الرضاعة ؟ » . وهز الدكتور جوفر رأسه قائلا : « انه انبثاق اللبن ، ولكن حذار أن ترضعى الطفل الآن ، لاسيما وأنت ضعيفة .. سأذهب لأسجل مولده ، ولأبحث عن مرضع له ! »

وظلت كاميل ـ طيلة النهار ـ تستقبل سكان المزرعة ، الذين حضروا لتهنئتها .. وكانوا يتأملون الطفل النائم بجانب والدته ، كأنهم يبحثون عن معالم شبه بوالده . بل لقد جرؤ بعضهم على أن يتساءل : « أترينه يشبه والده ؟ » .. وتساءل آخرون : « أين والده ؟.. لماذا تغيب ؟ » . فكانت ماريا تجيب : « ان أعمالا هامة اضطرته للسفر الى الشمال » .. واذ ذاك ، كان القوم يغمغمون : « ياللوالد المسكين !.. لاشك انه يكاد يجن الآن شوقا لرؤيته ! »

وكانت « كاميل » تسمع كل هذه الاحاديث وهى نصف نائمة ، تفكر فى والد الطفل .. والده الحقيقى الذى مات فى الصين ، ولا شك أن جثته قد ألقيت فى خندق مهجور يحيط به نبات الغاب وشجيرات الذرة !

(٥)

يصل الرجل ـ بواسطة الحب ـ الى ذروة شخصيته . ولكن المرأة لاتصل الى هـذه المرتبة الا فى مرحلة الأمومة ، حيث يطرأ التغير العظيم على جسمها ، فيتطور عقلها تبعا لذلك أيضا ، حتى ليمكن القول ان قوى جديدة تنبعث منه

.. وقد شعرت « كاميل » بذلك عندما تم شفاؤها ، وعادت اليها القدرة على استطلاع دخيلة نفسها ..

ذلك لأن « كاميل » شعرت بعواطف جديدة لم يسبق لها ان أحست بمثلها .. وكان أعظم ماشعرت به من سرور ، هو سرورها بسلامتها .. والآن ، بعد ان ولد الطفل ، وشربت الكأس حتى ثمالتها ، هاهى ذى الثمالة تبدو لها أقل مرارة مما كانت تظن فى بادىء الامر !

كذلك تبينت « كاميل » ـ فى شخصيتها الجديدة ـ نمو عاطفة أخرى ، هى الشعور بالمسئولية وحب الحياة ، فان غريزة الامومة طردت ذلك الاضطراب الذى كانت تشعر به قبلا ، فأصبحت تؤمن بأن من واجبها أن تعيش من أجل الطفل ، لكى تحمى تلك الروح الضعيفة ، وتذود عنها مهما يكلفها ذلك .. ولو اضطرت الى أن تقاتل والدها نفسه ! ..

وهكذا خطر ببالها ـ لأول مرة ـ الفرار من هذا السجن الذى قادها اليه والدها .. بل انها تجرأت يوما ، فسألته : « الى متى سنظل هنا ؟ » .. وكان جواب الطبيب : « الى نهاية حياتى ! »

الى نهاية حياته ؟! .. ياللهول ! .. ومن الذى يملك أن يحدد مدى هذه الحياة ؟ .. ثم ، لماذا يفرض عليها هذا السجن ، ويحدده بعمره هو ؟ .. انها لو بقيت فلن تستطيع أن تستمر فى الحياة، بل انها قد تموت قبل « نهاية حياته » هذه .. وما ذنب هذا الوليد المسكين ؟

عند ذلك فكرت جديا فى الهرب .. وكان تفكيرها أشبه بتفكير الأطفال ، لأنها لم تكن تعرف شيئا عن الحياة الحقة ،

ولكن ماريا شجعتها ، وأبدت استعدادها لأن تتبعها الى أى مكان ، فقد كانت ممتلئة بالاخلاص الذى يعمر كل روح بسيطة ساذجة .. بيد انهما سرعان ما ادركتا صعوبة تحقيق هذا الحلم .

كان عليهما أن تسيرا على أقدامهما نهارا كاملا ، للوصول الى أقرب القرى : (كابتى) أو (كاستل جالوا) ،حيث تستطيعان العثور على عربة . وما كان فى طوق « كاميل » — وهى لاتزال فى دور النقاهة — أن تسير تلك المسافة الطويلة . وفوق ذلك ، كيف ينقل الطفل هذه المسافة ؟ .. ومن يقوم باطعامه أثناء الطريق ؟ ..

وكانت « ماريا » أشد سخطا على الظروف من « كاميل » نفسها ، فراحت تتحسر على انها كانت فتاة عذراء وليست أما يحتمل أن تكون انجبت فترضع الطفل من ثدييها ، كما شعرت كاميل بالاسف لانها وكلت تغذية طفلها الى مرضع ، فلم يعد اللبن يجرى فى ثدييها .. وهكذا ظهر لهما عجزهما عن تنفيذ خطة الهرب من جميع الوجوه .. لم تكونا تملكان ان تفعلا شيئا دون مساعدة خارجية، فمن أين تجىء هذه المعونة ؟.. من لويس ؟!.. انهما لاتعرفان مقره ، وهل هو حى يرزق ؟ .. من روبير كلاييس ؟ ! .. ولكنه نسى وعده ، فلم يرد — ولو بالرفض — على تلك الصيحة اليائسة التى وجهتها اليه المرأة قبل أن تصير أما ..

ولكنها — مع ذلك — كتبت الى روبير خطابا ثانيا ، تحت الحاح ماريا .. ومرت الايام ، وهما تترقبان الرد . ولكن الانتظار انتهى بانهيار أمل كاميل .. ولما فقدت كل رجاء فى استلام الرد ، تسرب اليأس الى النفس البائسة ! .. لاريب

انهم كانوا يعملون على القضاء عليها ، وقد اتحد جميع الرجال ضد ضعفها ..

ولم تعد ترى أية جدوى للانسياق للآمال والاحلام ، وانتهت الى أن آثرت الكف عن النضال ، وقد امتلات نفسها بالحقد الصامت ، واعتزلت فى ألم لم يعد عزاء ماريا يخفف منه ..

وعادت ـ مرة أخرى ـ الى ذلك القنوط الذى كان قد استبد بها قبيل الوضع .. ونضبت من نفسها كل رغبة فى المقاومة أو التمرد ، و .. ارتضت لنفسها استسلام العاجز، المقهور ، المغلوب على أمره ..

وتصادف فى تلك الاثناء ، ان اشتد المرض بوليدها ، وازداد هزالا ولاحظت المسكينة ذبولا فى عينيه ، فأدركت أن أيامه قد أصبحت معدودة ، وتمنت ـ صادقة ـ لو امكنها ان تتبعه الى الموت ، محرر اولئك الذين يتعذبون فى الحياة !

***

ترى هل لاحظ جوفر تطور هذه الثورة التى شبت فى نفس ابنته ؟ .. ربما ، ولكن من المؤكد انه لم يهتم بها ، ولم يقم لها وزنا . فان وضع ابنته لم يؤثر فى نفسه الا فترة معينة من الزمن ، وما لبث أن استعاد شعوره بعد مدة قصيرة ، وأخذ يختبر ضميره ـ بعد أن عاد اليه جلده العادى ـ فشهد لنفسه قائلا : « لقد أديت واجبى ! »

كانت كاميل ـ ولا شك ـ مذنبة آثمة بدون قصد ، ولكن أية رحمة انسانية يمكن أن تمحو الماضى ؟.. وما دام زوجها « لويس » لم يقم بأية خطوة فى سبيل الانفصال أو الطلاق ، فقد كان على والدها أن يقوم بدوره ، ويحافظ على وعده ،

فيعتزل وابنته الحياة ! .. وليس من ريب فى أن من العسير على امرأة – فى سن العشرين – ان تحتمل الحياة فى منفى كهذا .. وقال الطبيب فى نفسه : « وأنا ؟ ! .. ألست أشاطرها الحياة فى هذا المنفى ، فى حين أننى لم ارتكب ذنبا يتطلب ان أكفر عنه ؟ ! »

واقتنع بهذا الرأى، حتى انتهى به الأمر الى اعتبار الوضع الراهن بمثابة ترتيب نهائى لا يمكن أن يتغير .. وكان – منذ شبابه – يعتبر السعادة أمرا استثنائيا ، كما يعتبر الألم قانونا عاما . ولم يحدث له قط ان ثار على تقلبات الايام ، بل انه اعتاد أن يكيف نفسه دائما طبقا للظروف .. حتى تلك البقعة الموحشة من الريف ، التى يسودها الصمت والوحدة والبرودة ، بدت له بقعة مناسبة ، يستطيع رجل مثله – اكتفى من الحياة وأخذ ينتظر الموت – أن يقضى بها الايام الاخيرة ، فلم يضره أن يقضى اعوامه الاخيرة بصحبة الفلاحين ، بعد أن قضى شبابه ورجولته فى المدن ..

ثم .. أليس فى هذا الريف ستار يبعده وابنته عن مجتمعات المدن ، ويصون – بالتالى – سرها المشين ؟ .. ان المدن أشبه ببؤر تبيض فيها الشائعات وتفرخ ، ولو بالباطل .. فكيف ، وعار ابنته حقيقة واقعة ؟ !

وهكذا أخذ يستعد للحياة بين هؤلاء الرجال الذين يعيشون على الفطرة – وهو الرجل الذى خبر مراحل الفكر بأجمعها – وقرر أن يدمج حياته فى حياتهم ، بعد أن اطمأن الى بساطتهم وسكونهم .. كانوا لا يسرفون فى الحديث ، وكانوا يعيشون وهم يفكرون فى أنفسهم ، ولا يأسون على شىء لا سبيل الى تجنب وقوعه ، ولا يهتمون بغير السماء والارض ..

ولا يتلصصون أسرار سواهم ، أو يدسون أنوفهم فى حياة غيرهم ، لاسيما اذا كان هذا الغير يجمع بين ميزتين : انه أرفع منهم مقاما ، فهو جدير باحترامهم .. وانه طيب ، عطوف ، فهو جدير بحبهم .. وكانوا قليلى المعرفة بشئون الحياة ، أو الموت ، ولكن نقص معرفتهم كان يبعث فى نفوسهم سلاما وسكينة !

وكان جوفر شديد الاعجاب بالفلاح « بولاو » ، المزارع الذى كان يتكفل بشئون الضيعة ، والذى اعتاد ان يقضى ساعات كاملة وهو جالس فى مقعد أمام منزله ، وغليونه بين شفتيه ، وقد تعلق بصره بأعالى أشجار الصنوبر ، وامتنع عن كل حركة كالمتصوف المتعبد .. وقد اعتاد الطبيب ـ بدوره ـ ان يجلس الى جانبه ، يحاول أن يستطلع روحه التى لم تتسرب اليها الآراء والافكار المكتوبة لتزيد من قلقها أو شكوكها ..

وكان يستغرق فى أفكاره الفلسفية أحيانا ـ كما كان يفعل فى أيام شبابه ـ ويسأل نفسه : ترى ألا يكون ذلك الرجل الساذج قد وصل الى أعلى درجة من السعادة ؟ !

***

وفى ذات صباح ، جلس الاثنان ـ وغليون « بولاو » فى فمه ، بينما كان جوفر يدخن سيجارا ـ فما لبث الفلاح أن مد يده مشيرا الى الطريق المؤدى للقرية ، وقال للطبيب : « انظر ! » .. وتطلع الطبيب الى البقعة التى أشار اليها الشيخ ، فرأى نقطة سوداء على بعد شاسع ، خيل اليه انها ثابتة لا تتحرك : « ما هذا ؟ » .. وهز « بولاو » رأسه وقال : « لم أعد أرى جيدا .. ولكن ابنى يستطيع أن يقول

لك! » . ونادى ابنه ، فأطال الشاب النظر بضع لحظات ، وقال : « هذه عربة آل فاجيه » .

وكان قد ميزها بنظره الحاد وهى عند حافة الافق .. ولم يلبث جوفر ان ترك مقعده ، ورمى سيجاره ، فقد شعر بأن القادمين فى طريقهم الى (ماو) — اذ كان الطريق لايؤدى الى غيرها — وانهم لابد قدموا لازعاجه فى عزلته بالبقعة التى اختارها ، والتى أعجبه فيها ما كان يظنه من أن الناس لا يعرفون مكانها .. وقال لبولاو : « اذا طلب القادمون مقابلتى ، فستجدنى فى غرفة الاستقبال منتظرا ! » ..

وسار بخطى واسعةنحو المنزل .. وهناك ، راح يذرع غرفة الاستقبال — زهاء ربع ساعة — وقد وضع يديه خلف ظهره ، وازيز أرجوحة الطفل يتسرب اليه خلال سقف الحجرة ، من الطابق الاعلى .

وسمع صوت العربة وهى تقف أمام الباب أخيرا .. ثم وقع أقدام تصعد السلم ، فقال فى نفسه : « يظهر انهم كثيرو العدد ! » . وعند ما سمع طرقات على باب الغرفة ، تأهب لملاقاتهم .. وما أن فتح الباب ، حتى لمح « روبير كلاييس » بجسمه الكبير ، فلم يدهش لرؤيته ، لانه كان يتوقع ان يراه ..

ولكنه لم يتمكن من أن يكتم صيحة استغراب ، عند ما رأى خلفه « لويس لوت » ، وقد هزل جسمه ، وشحب وجهه ، ودب المشيب فى شعره .

كان الموقف دقيقا جدا، وكان اللقاء ينذر بنتائج خطيرة حتى ان الرجال الثلاثة ظلوا لحظات فى صمت وسكون ، وقد راح كل منهم يتمعن فى وجه الآخر . وتوقع كل من جوفر

وزوج ابنته ان يكون بينهما حديث عاصف ، لا سيما وقد دبت بينهما قطيعة تامة ، منذ أنفصل الزوجان ..

***

وكان « روبير » هو الذى فتح باب الحديث ، اذ قال : « أرجو أن تسامحنا يا دكتور اذ أزعجناك فى عزلتك .. فأنت تدرك بلا شك ما دفعنا الى ذلك » . وهز جوفر رأسه قائلا : « لا ، لست أدرك شيئا .. ولو أراد لويس مقابلتى لكان فى امكانه أن يطلب ذلك فى أى مكان آخر غير هذا المكان، فانه ـ يعرف طريق الاتصال بى .. لقد كنت على استعداد للذهاب لمقابلته فى أى مكان ، عند أول دعوة تصلنى منه .. لقد وعدته بذلك . أليست هذه هى الحقيقة يا لويس ؟ » ..

وحاول الشاب أن يجيب ، الا أن اضطرابه كان يبدد قواه ، فوضع يده على جبهته ، وقال : « بلى .. أذكر هذا »

ولم يكن « لويس » يفكر الا فى شىء واحد ، هو ان كاميل هنا ، فى هذا المنزل ، وقد تلج الحجرة فى تلك الاثناء .. وكانت حركة الارجوحة قد سكتت فى الدور الاعلى ..

وقال الطبيب جوفر، موجها الحديث الى روبير : « لابد ـ اذن ـ أن شخصا قد أثر على لويس، فاضطره الى التصرف بهذا الشكل .. فان كنت أنت هذا الشخص ، فدعنى أصارحك بأن هناك مسائل عائلية خاصة لا يجوز أن يتدخل فيها غريب .. فما الذى اتى بك الى منزلى ؟ » ..

وتمتم لويس قائلا : «أبت !» .. وهز روبير كتفيه ، وقال مشيرا الى صديقه : « انظر اليه واخبرنى : أكان فى وسعه أن يأتى الى هنا وحده ؟ .. وبعد فما قيمة ذلك ؟ .. لنفترض

أننى أخطأت فى الحضور معه الى هنا ، اذ ليس لى ما أطالبك به ، أما هو فأظن ان له هنا بعض الحقوق .. والواقع - بايجاز - انه حضر ليستعيد زوجته ! .. والموقف دقيق كما ترى » .

ونظر جوفر الى زوج ابنته برهة طويلة ثم سأله : « هل هذا حقيقى ؟ » . وهنـا رفع لويس رأسـه قائلا : « نعم حقيقى ! » ..

واذ ذاك اقترب الطبيب من المقعـد الذى جلس فيه الشاب المسكين ، وأسند يده الى ذراع المقعد ، ثم انحنى عليه طويلا كأنه يفحص مريضا ، وقال : « لا يالويس ، ليست هذه الحقيقة .. قل لى أن هذا غير حقيقى ! .. لو كنت قد فكرت - حقا - فى ارتكاب هذا التصرف ، الذى ينطوى على الجبن والنذالة ، فقل لى الآن انك تشعر باشمئزاز منه ، وانك ستخرج من هنـا دون أن ترى المرأة التى دنست شرفك ! .. اتركهـا لى يا بنى ، فها أنتذا ترى اننى قد اعتزلت بها العالم ، ولم نعد من الاحيـاء ! .. اتركنـا فى الحال والا فستقضى على كل ما اكنه لك من تقدير ! »

وثبت لويس لوت عينيه على والد زوجته ، وقد فاضتا بضراعة ورجاء ، وقال : « ابت ! .. لا تضاعف همومى ! .. لقد ناضلت بكل قوة حقا ، ولكنى أحبها كثيرا كما ترى .. ويجب أن أغفر لها ! »

وضغط الدكتور جوفر على يدى الشاب المحمومتين ، وامتـلأ صـدره بحب ذلك الروح السـامى ، وتمتم قائلا : « تذكر يا ولدى العزيز ، ذلك اليوم الرهيب الذى اكتشفنا فيه عارنا .. فى ذلك اليوم رأيتك كما يجب أن تكون:

رجلا شجاعا، يعرف كيف يبتر العضو الذى امتد اليه المرض من جسمه ! .. كانت قوة ارادتك هى التى أملت على واجبى، فقد أبعدت «كاميل» عن قلبى ، فانتزعتها منه بعد أن رأيتك تخرجها من قلبك .. صدقنى أن مثل هذه القرارات الحاسمة ليست مما يمكن الرجوع عنه .. نعم ، أننى أعرف جيدا أنك تتألم ، وخير للمرء أن يتألم من أن يكون جبانا .. ليس هناك ألم اكبر من أن يرى المرء نفسه وقد ضاعت قيمته ، بعد أن فقد ارادته ! »

***

وطأطأ لويس رأسه وقال : « وأين هى ؟ .. أريد أن اراها » .. وهنا صاح جوفر ، وهو يترك يد زوج ابنته : « يا للجبن .. يا للخسة !.. انه لم يعد يصغى الى حديثى!» .. ثم استطرد قائلا ، وهو يلتفت الى روبير : « هل أنت الذى دبرت هذا ؟ .. لو كانت نصائحك هى التى دفعت به الى هذا الانحلال ، فأنا أهنئك على جدك ونشاطك فى تقويض قيم الاخلاق ! »

وأجابه روبير ببرود : « أؤكد لك يا سيدى ، انه لولا أن حياة هذا الرجل ـ الذى أحبه أكثر من أى شخص آخر ـ فى خطر ، لقدرت ما تقول وأصغيت باهتمام الى أفكارك .. انك انموذج عجيب للفلاسفة ، وأنت تتحدث كما لو كنت كاهنا .. انك تطالب لويس بانفصال الا يلزمه به أى دين من الأديان ، بل أنك تكاد تنزل عليه لعنة وحرمانا لأنه يقاوم رغبتك ، وكأنى بك قد نسيت أنك أنت الرجل الوحيد الذى لا يحق له ان يعارضه ! »

وقف لويس ، وهو يتتبع كلمات صديقه باهتمام وتحمس

عجيبين .. واستغرب جوفر ما كان يسمع فقال : « أنا ؟ ! لا يحق لى ؟ ! .. اننى لا أفهم ما تقول ! » .. فأجاب روبير : « وهذا ما أستغربه حقا .. فكر يا سيدى واذكر الماضى ، وابحث قليلا فى عوامل هذه الازمة ، ثم تكرم فقل لى : من هو المسئول ؟ »

وكرر جوفر سؤاله قائلا : « المسئول ؟ المسئول !.. اننا نعرفه جميعا ، وقد صار من المستحيل انزال العقاب به ، لانه قد مات فماذا تريد بقولك هذا ؟ » . فصاح روبير بقسوة : « كلا ، انه لم يمت .. المسئول الأول موجود هنا ، فى هذه الغرفة .. وهو بنفسه الذى يريد أن تمتد آثار الشر الذى سببه ! .. أن المسئول هو أنت ! »

وحاول جوفر أن يحتج ، ولكن روبير أمسك بذراعه قائلا : « اننى أكرر انك المذنب .. واذا كنت منصفا — كما أعهدك — فستوافقنى على رأيى . كانت لك ابنة ، وقد ألقت الظروف والمقادير عليك وحدك كل المسئوليات المتعلقة بها ، فهل أشرفت على تربيتها كما كان ينبغى على أى شخص آخر فى مركزك ، ولو كان أقل منك حكمة ؟ .. انك لم تفعل ذلك . ولا أعرف حقيقة ما يجول بفكرك عن ضعف المرأة وضعف ارادتها ، ولكنى أعرف أن الفكرة التى استولت عليك ، حملتك على أن تدع ابنتك تنشأ طبقا للظروف والاهواء ، واكتفيت بالعناية بجسمها ، وكأنى بك قد جثوت على ركبتك اعجابا بفن الطبيعة ، حين بلغت ابنتك سن الرشد ! .. ولم تهتم كثيرا بنمو النصف الآخر المقابل لهذا الجانب .. ولست أخترع شيئا ، بل اننى أذكر الحقيقة ، أليس كذلك ؟

« لقد اعترفت بأنك لم تتح لابنتك علما يكفى لحمايتها ، ثم لم تحفل — مع ذلك — باشراف عليها ، وفرض

رقابة دقيقة عليها .. بل انك عرضتها — فى أول الامر — لاغراء شاب تقدم بطلب يدها للزواج . وكان شابا غريب الاطوار، ولكنه احترمها بدافع من حماقته أو جبنه.. ثم أقبل رجل آخر كان أقل حماقة، أو أقل تهيبا من الأول ، فاستأثر بها على مرأى منك تقريبا .. ومع ذلك فانت لم تفطن الى شىء ! .. ثم زوجتها — بعد ذلك — وانت طبيب ، والجنين فى أحشائها ! »

فقاطعه جوفر مضطربا : « ولكنى لم أكن أعرف ذلك » . فقال روبير : « ولهذا الومك ! .. لقد كنت تجهل كل شىء يتعلق بعواطف ابنتك ، اذ لم تكن عواطفها تستحق الاهتمام فى نظرك . ومهما يكن رأيك ، فان واجبك كان يدعوك الى الاهتمام بها » . وسكت روبير ، فلم يجب جوفر ، وأحنى رأسه وأخذ ينظر الى الأرض ، ثم تقهقر بضع خطوات ، وجلس فى أول مقعد صادفه .. وساد الغرفة صمت طويل، أتكأ لويس — أثناءه — الى ذراع روبير ، وأخذا ينظران الى ذلك الكهل ، الذى بدا رازحا تحت وطأة الموقف .

***

وشعر لويس بالتأثر ، وأراد أن يقترب منه ، ولكن جوفر استوقفه باشارة من يده ، ثم اتجه الى روبير وهو يقول : « انك رجل أمين يا سيدى ، وانى لأشكرك على كلماتك ، وأحفظ لك هذه المنة . أتراني أنا المخطىء ؟ .. وهل أنا السبب فى كل ما وقع من اثم ؟ .. ان هذه الفكرة تؤلمنى بقسوة كما ترى ، ولكن .. »

وأمسك الطبيب الشيخ لحظة عن الكلام ، وقد تتابعت أنفاسه فى عنف ، واشتد به التأثر .. ولكنه استأنف الكلام

بعد لحظة ، وقد استمد من ايمانه بمسلكه قوة ، فقال : « اذا كان الخطأ الذى ارتكبته يحرمنى من تقرير أى شيء يتعلق بالمستقبل ، فدعنى على الاقل أدافع عن قضية الحقيقة والكرامة .. وايا كان الشخص المذنب المسئول ، فالاثم قائم على كل حال ، ولم يتزوج لويس الا بامرأة مدنسة ، وقد أصبحت هذه المرأة أما .. فهل تظن ـ وأنا أوجه هذا السؤال الى عقلك وقلبك ـ هل تظن ان من الممكن ازالة نقطة سوداء كهذه ، مهما يتغاضى عنها الانسان ؟ .. تكلم أنت ، فأنت ـ على الاقل ـ لست صاحب مصلحة ، ولا أنت متورط فى الامر ! »

وأجاب روبير بصوت يتجلى فيه العزم الصدق : « أقسم بالشرف أن للويس أن يغفر لزوجته ، دون أن يكون فى هذا أى نوع من الخسة أو التردى .. اننى اؤمن بذلك ، لأن الدنس لم يصل الى روح زوجته ، ولم ينل الا جسمها . وأنت تعرف أن دنس الجسم يمكن محوه ، أما الدنس الذى لا يمكن محوه البتة ، فهو دنس الروح .. وبعد ، فاننى أسألك عن هذه الفتاة التى دنس جسدها بالقوة ، هل مر بخاطرها ـ فى أى يوم من الايام ـ أى فكر شرير ؟ .. لقد أودعت ثقتها رجلا شقيا خانها . وقد أخفت نبأ تلك الفاجعة ـ التى راحت ضحيتها ـ عن لويس ، بدافع من حبها ، لانها كانت تجهل الحقيقة فى ذلك الوقت » ..

وأخذ الطبيب الشاب يلهث وكأنه كان يجرى .. وسكت لحظة ، ريثما تمالك انفاسه ، ثم استطرد : « والآن ـ ونحن أدرى بقواعد الطب ـ فاننا نعرف بلا شك أن الجسد المدنس قد تغير وتطور ، وانه لم يعد يحوى ـ بكل تأكيد ـ أى أثر

من آثار العشيق . أما الروح ، فقد بقى على حاله حقا .
وانت يا عزيزى لويس : ان ذلك الروح كله ملك لك، لاينازعك
فيه أحد ، وهو نفس الروح الذى كنت تلمسه فى زوجتك فى
صغرها ، وفى براءتها .. وهذا هو السبب الذى يدفعنى لأن
أقول لك الآن : عد الى زوجتك ، وردها اليك ! »

امتلأت عينا لويس بالدموع ، فارتمى على كتف صديقه
وهو يصيح : « آه يا روبير ، كم أحبك ! .. كم أنت طيب
القلب ، متمسك بأهداب الحق ! .. كأنى بك ضميرى
وفكرى ! .. »

ثم التفت الى الطبيب جوفر ، وقال : « هل لك أن ترد
الى ابنتك يا ابت ؟ »

فأجابه جوفر : « خذها ! خذها اذا كنت قد صفحت
عنها ! » .. وكان يردد فى نفسه : « أين الواجب ؟ .. أين
الحق ؟ .. أين الحقيقة ؟ »

***

وفى تلك اللحظة ، فتح الباب بخفة ، كأن التى دفعته يد
طفلة صغيرة .. وعرف لويس فى الحال من القادم ، فاختنق
صوته وهو يهتف بهذا الاسم : « كاميل ! »

وكانت هى ! .. وتقدمت مضطربة خائفة ، ثم ارتمت على
صدر زوجها ، وهى تقول : « لقد سمعت كل شىء .. كنت
وراء الباب . أواه ! .. هل لك أن تسامحنى ! .. خذنى ،
فقد تعذبت كثيرا ! »

وقبل لويس ذلك الوجه الذى كان يحتمى به، فأخذ روبير
كلاييس بيد الدكتورجوفر، وخرجا من الغرفة، وهو يقول له:
« فلنتركهما وحدهما !»

وظل الزوجان متعانقين مدة طويلة ، بعد خروج الطبيبين .. ورفع لويس رأس كاميل، وأخذ يتفرس في وجهها ، ويملأ عينيه بجمالها الذي حرم منه منذ شهور .. كانت لا تزال جميلة ، بل لا سبيل الى وصف جمالها ، وخاصة بعد أن وضحت ملامح الحزن المرتسم على وجهها .. وقرأ في عينيها - الى جانب الاغتباط العظيم - ما ينبيء ببعض القلق، كأنها كانت تخشى ألا يكون كل ما حدث حقيقيا ، أو ان لا يستمر اذا كان حقيقة !

ووضع شفتيه على الفم الشاحب ، وما لبثا أن أخذ كل منهما يضم الآخر اليه ، بتلك الحمى التى كانت تنتابهما في الماضي، كان تيارا كهربائيا قد سرى في جسمهما !.. ياللسكرة الهائلة !.. لقد بعثت القبلة متعة عظيمة في نفسيهما ، فأخذا يشربان تلك الكأس المترعة ، التى تساعدهما على نسيان كل الماضى المؤلم ، وهما يتعجلان البداية الجديدة للمستقبل، وينظران فى ثقة الى السعادة التى ستقدمها لهما الايام القادمة .

***

وبعد أن تم اللقاء ، شرعا يتساءلان : كيف أمكنهما أن يفترقا طول تلك المدة الماضية ، وما هى الأسباب ، أيا كان نوعها ، التى منعتهما من الاتصال ؟ .. لا ، لم يكن هناك سبب يدعو الى ذلك ، منذ الدقيقة التى تعانقا فيها .. ان أيديهما المتشابكة كانت تتحدى الحياة ، وليفن كل شيء حولهما ، على أن يبقيا معا .. دون فراق !

الا أن كاميل لم تلبث أن تخلصت من احضان لويس، وبدا التفكير علي وجهها ، ثم تحول الي صورة من الالم . فقد

سمع من الدور الاعلى بكاء يشبه الأنين المنتظم . وسألها لويس : « ماذا بك ؟ .. هل من اوجاع ؟ » . فهزت رأسها اشارة النفى ، ثم أخذت بيد زوجها ، وقالت : « تعال ! »

وقادته الى السلم ، فحاول أن يستبقيها ، ولكنها قادته الى حجرة بالدور الأعلى ، فوقعت عيناه ــ فى الحال ــ على ارجوحة بيضاء الستائر .. وكانت هناك فتاة تهز الارجوحة هزا منتظما ، فما ان رأتهما مقبلين ، حتى انسحبت من الغرفة .. وكانت كاميل لا تزال ممسكة بيد زوجها فقادته الى الارجوحة .

وازاحت ستائرها ، دون أن تنطق بكلمة ، فظهر وجه طفل على الوسادة . وكان مغبر اللون ، وقد امتدت يداه الى خارج الاغطية ، وبدت حركاته بطيئة ، لاتشبه حركات الاطفال الآخرين . وكان ذا عينين سوداوين ، واسعتين ، تنبعث منهما نظرة خاصة ، لا تماثل نظرات الاطفال الذين فى سنه .

واستقرت العينان الصغيرتان على وجه لويس فى تشبث غريب ، وهما تعبران عن الالم المستمر ، الذى يشعر به مخلوق لا يعرف لماذا يقاسى ويتألم ، ويرجو الخلاص من عذابه بين لحظة وأخرى . وكان فمه يفتح بانتظام ، ليفرز اللعاب .. وأدارت كاميل رأسها ، فاذا لويس واجم ، وقد وقف الى جانب ذلك الفراش الذى كان صاحبه يستحق الرثاء ..

وفى لحظة قصيرة ، هاجمته أفكار متعددة ، واندفعت الى قلبه خواطر لاحصر لها . شعر بخطورة الحب ، تلك الخطورة التى تبعث الى الحياة بتلك المخلوقات الصغيرة معدومة الشعور .. وأدرك حق هذه المخلوقات فى ارتقاب الرأفة من كل انسان .. وتبين فى الأمومة ــ مهما يكن مصدرها ــ ناحية

تستحق الاحترام ، ما دامت قد أضافت روحا جديدا الى الحياة .. وكاد قلبه يتقطع فى شهقة طويلة تعبر عن الشفقة .. ثم انحنى ، فطبع قبلة على جبهة الطفل المحموم ، الذى رفع عينين تفيضان تعاسة وشقاء ، وقد أطل منهما الموت !

الخاتمة

فى نهاية الخريف التالى ، قضى روبير – وكان فى طريقه الى اسبانيا – بضعة أيام فى مدينة (تونيان) ، ثم اتجه الى مزرعة (ماو) . وكان جوفر يعيش هناك – فى وحدة تامة – بعد سفر ابنته ، وقد أصر بعناد غريب على أن يستمر فى الاقامة هناك ، تلازمه « أرما » .. أما « ماريا » ، فكانت قد هجرت مسقط رأسها ، لتتبع « كاميل » .. ولم يكن للطبيب الشيخ من زملاء هناك غير رجال المزرعة .

ولم يحدث أن ساد السكون فى تلك المنطقة – فى وقت من الاوقات – أكثر مما ساد فى تلك الايام التى قضاها جوفر هناك ..

وكانت زيارة روبير للدكتور جوفر محاولة أخيرة ، أوحى بها لويس و كاميل ، بقصد اعادة الشيخ الى مدينة (تونيان) ، وقد حملا « روبير » خبرا هاما ، كانا يرجوان أن يقضى على كل معارضة من جانب « جوفر » . ذلك ان كاميل لم تكد تخلع ثياب الحداد على طفلها – الذى مات عقب عودتها الى زوجها بقليل – حتى حملت للمرة الثانية .

وصارح روبير صديقه الشيخ بهدف زيارته ، بعد أن تناول العشاء ، وجلسا يدخنان .. فبادر جوفر قائلا :

«أناشدك أن تدع هذا الموضوع جانبا ياصديقى.. لقد رسمت لحياتى خطتها ، وأقسمت ان اموت فى هذه البقعة .. ثم ، ما جدوى ذهابى للحياة معهما ! .. انك تقول انهما نسيا كل شىء ، أما أنا فاننى أجهل طريق النسيان ، ولذلك فاما أن اعكر عليهما صفو حياتهما ، أو أن أكذب على نفسى باستمرار .. اننى سأضايق نفسى كما ترى ، ولن أجد أن لويس هو لويس الذى عرفته فى الماضى.. ولن تكون «كاميل» - بالنسبة لى - هى « كاميل » الصغيرة التى ربيتها وأحببتها ! .. ماذا تريد بعد ذلك ؟ .. اننى لا أعرف ما تسمونه الخضوع للحياة ! »

وبهر الطبيب الشاب بحديث زميله الشيخ وحرارة لهجته، وهو يدافع عن مسلكه ، ويعرض فلسفته .. انه لم يكن مجرد الأب المتعنت ، الذى رأى فى مسلك ابنته وزلتها ماأثار نفسه ، وأوجب نقمته .. ولكنه كان « الفيلسوف » الحكيم ، المتشبث بالمثل الخلقية العليا .. ولقد رأى فى زلة ابنته أكثر من مجرد الغدر بالثقة التى أولاها اياها .. رأى فيها هدما للقيم الخلقية التى كان يعتز بها !

ولكن « روبير » لم يشأ أن ينساق لتأثره ، بل آثر أن يبذل جهدا أخيرا ، فقال :

- سيدى الطبيب ، أنت رجل شديد الاخلاص ، ومع ذلك فاننى أعتقد أنك على خطأ .. ان هذا الخضوع للحياة - الذى تحتقره - يتكافأ فى يقينى مع أعظم انواع السرور المشروعة ، فاستمع لما أقول : لقد قضيت أسبوعا فى (تونيان)، فوجدت أشخاصا سعداء ، كلهم آمنوا بنظرية الخضوع للحياة .. اننى لاأتحدث عن ولديك - كاميل و لويس -

فقط ، ولكن صديقنا « روكبيكيه » قد تزوج بفتاة دميمة الخلقة ، سيئة الخلق ، رديئة السمعة ، فحولها الزواج الى امرأة طيبة ، جديرة بالرضى ، وروكبيكيه سعيد بذلك .. وهم يقولون أن « مدام دلكومب » قد ظفرت بدل زوجها بأعلام النصر فى عالم الخطابة والكتابة ، ولكن زوجها «بول» لايزال راعيا لكنيسة مدينة صغيرة ، وها هوذا قانع بأولاده .. كل هؤلاء سعداء ، فى حين أنك ـ يا عزيزى الطبيب ـ تحاول الوقوف فى وجه الحوادث .. يجب أن تعرف بصراحة أنك لا تعرف السعادة ! .. اننى طبيب مثلك ، وقد شخصت مرضك تشخيصا فيه الكفاية .. انك مريض جدا ، بل انك تنتحر هنا ببطء !

فقاطعه جوفر قائلا : « ان المرض لا يهمنى كثيرا .. لقد عشت طويلا ، وسأرحل دون كبير أسف . ولكن ، دعنى أسألك ياصديقى ـ وأنت صاحب نظرية «الخضوع للحياة» ـ أى خضوع خضعته للحياة حتى اليوم ؟ .. يبدو عليك أنك رجل لا ينثنى كثيرا تحت تأثير الريح ! »

ولم يتألم الطبيب الشاب لما انطوت عليه لهجة الطبيب الشيخ من لوم ووخز ، وانما ارتسمت على وجه روبير ابتسامة عريضة ، ثم أجابه : « انك على خطأ ، فلقد بحثت باستمرار ـ خلال عشرين عاما ـ عن امرأة ابادلها الحب .. ان ما أريده حبا من نوع حب كاميل و لويس ، ولكنى لم أجد هذه المرأة ! .. لم أجد الا امرأة عادية عشقتها واتخذتها خليلة .. امرأة شديدة الاخلاص ، فضلا عن اننى لم أعد املك أن أتخلص منها ، فأنا اكبر سنا من أن اقطع تلك العلاقة التى تربط بينى و بينها ، ولذا فقد اعتزمت أن أزيدها توثيقا وقوة .. ان أمامك الآن رجلا سيسافر الى

مدينة (برشلونة) ، ليلتقى هناك بالآنسة « لوسى مرتيل » احدى طالبات قسم البيانو السابقات فى (الكونسرفتوار) ، وهى عين المرأة التى حدثتك عنها .. وعند عودة هذا الرجل الى هنا ، سيقدمها اليك بوصفها : زوجته ! »

وسأله جوفر : « وهل ستكونان سعيدين ؟ » . فأجاب روبير : « سأكون سعيداً لأن الحيـاة مدينة لى بتعويض كبير . وانك لترى يا سيدى الطبيب أن كل سعادة أرضية لا يمكن ان تقوم الا على التوفيق بين الحلم والحقيقة ! »

وهز جوفر رأسه وأجاب حزينا :

ــ كأنك تقول يا صديقى أن كل سعادة دائمة فى هــذا العالم ، لابد أن تبنى على شيء من الجبن الانسانى !

تمت

مطبوعات كتابى

راجع مكتبتك الخاصة لتتأكد من وجود كل هذه الشوامخ — التى قدمتها لك « مطبوعات كتابى » فى أعدادها السابقة — فهى ثروة أدبية لا تقدر بمال

قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
ذات الثوب الابيض	ويلكى كولينز
الخالدون	ديل كارنيجى
الخاطئة	سومرست موم
حياة امرأة (جزءان)	جى دى موباسان
الخطيئة الاولى	البرتو مورافيا
فتاة من الاقاليم	
أوديب	سوفوكليس واندريه جيد
مدام بوفارى (جزءان)	جوستاف فلوبير
عاشقات فى الخريف	ستيفان زيفايج
قلوب ضالة	طاغور
ديكاميرون (الف ليلة وليلة الايطالية)	جيوفانى بوكاشيو
الظمأ للحب	ميكا والتارى
جين اير (٣ أجزاء)	شارلوت برونتى
فاتنات الرجال	مارجورى كورجين
رجال ونساء	جوركى
الثأر للوطن	جون شتاينبك

فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	أدوين جون ديفيز
الابن الضال	هنرى بوردو
أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
بيلا دونا (٣ أجزاء)	روبرت هتشنز
بوشكين	ليديا لامبير
اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء)	جان جاك روسو
قصص من الصين	أروع نماذج الأدب الصينى
ليالى بلزاك (ألف ليلة وليلة الفرنسية)	أونوريه دى بلزاك
الالياذة (٣ أجزاء)	هوميروس
قصص من روما	البرتو مورافيا
المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلى
سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
دم .. وخمر	ليو تولستوى
تحت ظلال « الليلا »	مبرورة سامى
أرواح هائمة فى الادغال	سومرست موم
القلعة (٣ أجزاء)	دكتور « كرونين »

فرانسواز ساجان

هل تحبين برامس

مرتفعات ويذرنج (٣ أجزاء) اميلى برونتى

مدموازيل جوفر (جزءان) مرسيل بريفو

الى جانب تحفة باسترناك الخالدة ((دكتور جيفاجو)) ، التى صدرت فى جزءين من الحجم الكبير .

اذا كانت تنقصك هذه المجموعة أو عدد منها ، فلا تتردد فى المبادرة الى طلبها من ادارة « كتابى » — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة .. فهى خير ثروة تنعم بها فى حياتك ، وتورثها أبناءك بعد ذلك ..



كتابي
الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية
ملعونة هي الشهوة! (أحدث كتاب عن حياة موباسان)
قصة الفساد والانحلال في فرنسا قبل الحرب الأخيرة
فولتير العاشق
قصص الحب في سياسة العالم
حياة توماس مان
الشمس تشرق ثانية ارنست هيمنجواي
يوميات فرانسوا مورياك
أقوى من المال! جان أنوي
ابراهام لنكولن في حياته الخاصة
قصة حياة فندق ادلون (برلين)
نماذج من النساء ارسكين كالدويل
نساء ومآسي في ساحة العدالة
الغريب البير كامي
حياة "فلمنج" مكتشف البنسلين
يحشد لك في أعداده القادمة
مجموعة ضخمة من أروع الكتب الحديثة
التي جلبها لك من عواصم أوربا وآسيا
.. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة
العالمية على مصراعيها .. ويكفل لك
ولأولادك زادا عقليا وغذاء وجدانيا
لم يسبق لهما مثيل باللغة العربية.
احرص على اقتناء كل عدد جديد
واطلب الأعداد السابقة من الإدارة
١٤ شارع ٢٦ يوليو (عمارة الجندول) - ت: ٥٩٥٥٦٠
يصدره حلمي مراد
في كل عدد من كتابي: سيرة حياة شخصية عالمية + قصة طويلة + كتاب في علم النفس
+ مسرحية ملخصة + محاكمة جنائية أو قصة تاريخية + كتاب غزلي ملخص .. الخ ..
علاوة على باب المحرر: "رأيت وسمعت لك في ..."